

الباب الأول

الفتاوى الصغرى

الفصل الأول

تعريف وبیان

يطلق على المرحلة التي يمر بها الإنسان بعد هذه الحياة الدنيا عدة أسماء ،
منها : القيامة الصغرى ، والبرزخ ، والموت .
وسنعرض لهذه الثلاثة بشيء من التفصيل فيما يأتي .

المبحث الأول

تعريف القيامة الصغرى

القيامة الصغرى هي الموت ، فكل من مات فقد قامت قيامته ، وحين
حينه ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة قالت : كان رجال من الأعراب
يأتون النبي ﷺ فيسألونه عن الساعة ، فكان ينظر إلى أصغرهم فيقول : « إن
يعش هذا ، لا يدركه الهرم حتى تقوم عليكم ساعتكم »^(١) .

قال ابن كثير : « والمراد انخرام قرنهم ، ودخولهم في عالم الآخرة ، فإن كل
من مات فقد دخل في حكم الآخرة ، وبعض الناس يقول : من مات فقد قامت
قيامته ، وهذا الكلام بهذا المعنى صحيح »^(٢) .

وقد أشار ابن كثير إلى أن هذا القول يقوله الفلاسفة ، ويريدون به معنى

(١) مشكاة المصابيح : (٤٨/٣) .

(٢) النهاية لابن كثير : (٢٤/١) .

فاسدا . فإن الملاحدة يريدون أن الموت هو القيامة ولا قيامة بعدها . يقول ابن كثير : « وقد يقول هذا بعض الملاحدة ، ويشيرون به إلى شيء آخر من الباطل ، فأما الساعة العظمى ، وهي وقت اجتماع الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فهذا ما استأثر الله بعلم وقته »^(١) .

وتسمى القيامة الصغرى أيضا بالمعاد الأول ، كما تسمى بالبرزخ .
يقول ابن القيم : « الموت بعث ومعاد أول » ، فإن الله جعل لابن آدم معادين وبعثين يجزي فيهما الذين أسأؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى .
فالبعث الأول : مفارقة الروح للبدن ، ومصيرها إلى دار الجزاء الأول »^(٢) .

(١) المصدر السابق .

(٢) الروح ، لابن القيم : ص ١٠٣ .

المَبْحَثُ الثَّانِي

البرزخ

البرزخ في كلام العرب الحاجز بين الشيئين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾^(١)، أي حاجزا والبرزخ في الشريعة: الدار التي تعقب الموت إلى البعث. قال تعالى: ﴿وَمِنْ دَرَأِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾^(٢). قال مجاهد: هو ما بين الموت والبعث، وقيل للشعبي: مات فلان، قال: ليس هو في دار الدنيا، ولا في الآخرة^(٣).

وقال ابن القيم: «عذاب القبر ونعيمه اسم لعذاب البرزخ ونييمه، وهو ما بين الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمِنْ دَرَأِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾^(٤) وهذا البرزخ يشرف أهله فيه على الدنيا والآخرة».

-
- (١) سورة الفرقان: ٥٣.
 - (٢) سورة المؤمنون: ١٠٠.
 - (٣) تذكرة القرطبي: ١٧٧.
 - (٤) سورة المؤمنون: ١٠٠.

المبحث الثالث

الموت

المطلب الأول

الموت في اللغة والاصطلاح

الحياة والموت متناقضان تناقض النور والظلام والبرودة والحرارة ، ولذا فإن معاجم اللغة العربية تُعرّف كل واحد منهما بأنه نقيض الآخر ، ففي تعريف الحياة تقول : « الحياة نقيض الموت ، والحي من كل شيء : نقيض الموت ، والجمع أحياء »^(١) ، وفي تعريف الموت تقول : « الموت والموتان ضد الحياة »^(٢) ، وأصل الموت في لغة العرب : السكون ، وكل ما سكن فقد مات^(٣) ، فتراهم يقولون : « ماتت النار موتا : إذا برد رمادها ، فلم يبق من الجمر شيء ، ومات الحر والبرد إذا باخ ، وماتت الريح : ركدت وسكنت ، وماتت الخمر : سكن غليانها ، والموت مالا روح فيه »^(٤) .

وإذا كان السكون أصل الموت في لغتنا ، فإن الحركة أصل الحياة ، ففي لسان العرب : « الحي كل متكلم ناطق ، والحي من النبات ما كان طريا يهتز »^(٥) ، والحياة الإنسانية تتحقق بنفخ الروح في جسد الجنين في رحم أمه ، والموت « انقطاع تعلق الروح بالبدن ، ومفارقتها وحيلولة بينها ، وتبدل حال ، وانتقال من دار إلى دار »^(٦) .

-
- (١) لسان العرب ، لابن منظور : (٧٧٤/١) .
(٢) لسان العرب : (٥٤٧/٣) .
(٣) لسان العرب : (٧٧٣/١) .
(٤) لسان العرب : (٥٤٧/٣) .
(٥) لسان العرب : (٥٤٧/٣) .
(٦) التذكرة للقرطبي : ٤ .

المطلب الثاني

الوفاة الكبرى والوفاة الصغرى

النوم شبيه الموت ، ولذلك يسميه علماءنا بالوفاة الصغرى ، فالنوم وفاة ، والقيام من النوم بعث ونشور ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ (١) وفي النوم تقبض أرواح العباد ، ومن شاء الحق أن يمسك روحه في حال نومه أمسكها ، ومن شاء بقاءها ردها إلى الأجل الذي حدده الحق ، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (٢) . « فقد أخبر الحق أن كلا من النفسين المسكدة والمرسلة توفيتا وفاة النوم ، وأما التي توفيت وفاة الموت فتلك قسم ثالث ، وهي التي قدمها بقوله : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ (٣) . . . فإن الله ذكر توفيتين : توفى الموت ، وتوفى النوم ، وذكر إمساك المتوفاه ، وإرسال الأخرى .

ومعلوم أنه يمسك كل ميتة سواء ماتت في النوم أو قبل ذلك ، ويرسل من لم تمت ، وقوله : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ (٤) يتناول ما ماتت في اليقظة وما ماتت في النوم ، فلما ذكر التوفيتين ذكر أنه يمسكها في إحدى التوفيتين ويرسلها في الأخرى ، وهذا ظاهر اللفظ بلا تكلف (٥) .

(١) سورة الأنعام : ٦٠ .

(٢) سورة الزمر : ٤٢ .

(٣) سورة الزمر : ٤٢ .

(٤) سورة الزمر : ٤٢ .

(٥) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٤٥٢/٥) .

المطلب الثالث .

الموت حتم لازم

الموت حتم لازم لا مناص منه لكل حي من المخلوقات ، كما قال تعالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١) ، وقال : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (٢) وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٣) . وقال : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ (٤) .

ولو نجا أحد من الموت لنجا منه خيرة الله من خلقه محمد ﷺ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٥) ، وقد وصى الله رسوله بأن الموت سته في خلقه ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ أَجْلاً أَقْلِينَ مِتَّ فَهُمْ أَنخَلِدُونَ﴾ (٦) .

والموت حق على الإنس والجن ، ففي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت الذي لا يموت ، والإنس والجن يموتون » .

(١) سورة القصص : ٨٨ .

(٢) سورة الرحمن : ٢٧ .

(٣) سورة آل عمران : ١٨٥ .

(٤) سورة الزمر : ٣٠ .

(٥) سورة الأنبياء : ٣٤ .

المطلب الرابع للموت أجل محدد

للموت وقت يأتي فيه ، فلا يستطيع أحد أن يتجاوز الأجل الذي ضربه الله ، وقد قدر الله آجال العباد ، وجرى بذلك القلم في اللوح المحفوظ ، وكتبته الملائكة الكرام والمرء في بطن أمه ، فلا يتأخر المرء عما كتب له ولا يتقدم ، وكل إنسان مات أو قتل أو غرق أو سقط من طائرة أو سيارة أو احترق أو غير ذلك من الأسباب ، فإنه قد مات بأجله الذي قدره الله وأمضاه ، وقد دلت على ذلك نصوص كثيرة ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُؤَجَّلًا ﴿١﴾ ، وقال : ﴿ أَيَتَمَنَّا تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي رُوحٍ مُشِيدَةٍ ﴿٢﴾ .

وقال : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣﴾ وقال : ﴿ قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي تُقْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلَائِكَةٌ ﴿٤﴾ ، وقال : ﴿ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٥﴾ .

وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن مسعود قال : قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ ، ورضي الله عنها : « اللهم أمتعني بزوجي رسول الله ، وبأبي أبي سفيان ، وبأخي معاوية » .

(١) سورة آل عمران : ١٤٥ .

(٢) سورة النساء : ٧٧ .

(٣) سورة الأعراف : ٣٤ .

(٤) سورة الجمعة : ٨ .

(٥) سورة الواقعة : ٦٠ .

قال : فقال النبي ﷺ : « لقد سألت الله لأجل مضرورية ، وأيام معدودة ، وأرزاق مقسومة . لن يعجل شيء قبل أجله ، ولن يؤخر الله شيئا بعد أجله ، ولو كنت سألت الله أن يعيدك من عذاب النار ، وعذاب في القبر كان خيرا وأفضل » (١) .

المطلب الخامس وقت الموت مجهول لنا

لا علم للعباد بالوقت الذي يحضر فيه الموت ، وينزل بهم ، فإن علم ذلك لله وحده ، وهو واحد من مفاتيح الغيب التي استأثر الله بعلمها ، قال تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٣) .

وقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٤) (٥) وقد روى أحمد والترمذي وغيرهما عن جماعة من الصحابة قالوا : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها - أو قال : بها - حاجة » .

(١) رواه مسلم في كتاب القدر من صحيحه ، وأحمد في المسند : (١/٣٩٠ ، ٤١٣ ، ٤٤٥) .

(٢) سورة الأنعام : ٥٩ .

(٣) سورة لقمان : ٣٤ .

(٤) سورة لقمان : ٣٤ .

(٥) رواه البخاري في كتاب الاستسقاء وفي كتاب التفسير .

الفصل الثايف

الاحتضار

المبحث الأول

حضور ملائكة الموت

إذا حان الأجل وشارفت حياة الإنسان على المغيب أرسل الله رسل الموت لسبل الروح المدبّرة للجسد والمحركة له ، ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴾ (١) ، وملائكة الموت تأتي المؤمن في صورة حسنة جميلة ، وتأتي الكافر والمنافق في صورة مخيفة ، ففي حديث البراء بن عازب أن الرسول ﷺ قال : « إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء ، بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة (٢) ، حتى يجلسوا منه مدّ بصره ، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام ، حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الطيبة (وفي رواية : المطمئنة) اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان . قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء ، فيأخذها ...

(١) سورة الأنعام : ٦١ .

(٢) بفتح الحاء ، ما يخلط من الطيب لأكفان الموت وأجسامهم خاصة .

وإن العبد الكافر (وفي رواية الفاجر) إذا كان في انقطاع من الآخرة، وإقبال من الدنيا ، نزل إليه من السماء ملائكة [غلاظ شداد] سود الوجوه ، معهم المسوح^(١) [من النار] فيجلسون منه مدَّ البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب . قال : فتفرق في جسده ، فيتزعاها كما يتزع السفود [الكثير الشعب] من الصوف المبلول ، [فتقطع معها العروق والعصب]^(٢) .

وما يحدث للميت حال موته لا نشاهده ولا نراه ، وإن كنا نرى آثاره ، وقد حدثنا ربنا تبارك وتعالى عن حال المحتضر فقال : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٌ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَتَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾^(٣) : والمتحدث عنه في الآية الروح عندما تبلغ الحلقوم في حال الاحتضار ، ومن حوله ينظرون إلى ما يعانیه من سكرات الموت ، وإن كانوا لا يرون ملائكة الرحمن التي تسل روحه ﴿ وَتَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾^(٤) كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَرُسُلٌ عَلَيْكَ حَفَظَةٌ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَآيُفِرُّونَ ﴾^(٥) .

(١) جمع المسح ، بكسر الميم ، هو ما يلبس من نسيج الشعر على البدن تقشفا ، وقهرا للبدن .

(٢) جمع الشيخ ناصر الدين الألباني جميع روايات هذا الحديث ، وساقه سياقاً واحداً ضمماً إليه جميع الزوائد والفوائد التي وردت في جميع طرقه الثابتة في كتابه القيم : (أحكام الجنائز : ص ٥٩) ، وقد عزاه الشيخ إلى أبي داود (٢٨١ / ٢) والحاكم (١ / ٢٧ - ٤٠) والطيالسي (رقم ٧٥٣) وأحمد (٤ / ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦) والسياق له ، والأجري في الشريعة (٣٦٧ - ٣٧٠) وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، وأقره الذهبي ، وهو كما قال ، وصححه ابن القيم في اعلام الموقعين (١ / ٢١٤) وتهذيب السنن (٤ / ٣٣٧) ، ونقل فيه تصحيحه عن أبي نعيم وغيره .

(٣) سورة الواقعة : ٨٣ - ٨٥ .

(٤) سورة الواقعة : ٨٥ .

(٥) سورة الأنعام : ٦١ .

وقال في الآية الأخرى : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾
 وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالنَّتْفِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ (١)
 والتي تبلغ التراقي هي الروح ، والتراقي جمع ترقوه وهي العظام التي بين ثغرة
 النحر والعاتق .

وقد صرح الحديث بأن ملك الموت يبشر المؤمن بالمغفرة من الله والرضوان ،
 ويبشر الكافر أو الفاجر بسخط الله وغضبه ، وهذا قد صرحت به نصوص كثيرة في
 كتاب الله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا نَتَزَّلُ عَلَيْهِمُ
 الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نحن أولياء وكر
 في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكر فيها ما تشتهي أنفسكم ولكر فيها ما تدعون
 ﴿٣١﴾ تَزَلَّوْا مِنْ غُفُورٍ رَجِيمٍ ﴿٣٢﴾ .

وهذا التنزل - كما قال طائفة من أئمة التفسير منهم مجاهد والسدي - إنما
 يكون حالة الاحتضار (٣) ، ولا شك أن الإنسان في حالة الاحتضار يكون في موقف
 صعب ، يخاف فيه من المستقبل الآتي ، كما يخاف على من خلفه بعده ، فتأتي
 الملائكة لتؤمنه مما يخاف ويحزن ، وتطمئن قلبه ، وتقول له : لا تخف من المستقبل
 الآتي في البرزخ والآخرة ، ولا تحزن على ما خلفت من أهل وولد أو دين ، وتبشره
 بالبشرى العظيمة ، ﴿ وَأَبشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٤﴾ ، ﴿ وَلَكْرٌ فِيهَا مَا
 تَسْتَبِيهِ أَنْفُسُكُمْ وَلَكْرٌ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٥﴾ ، وما دام العبد قد تولى الله وحده ،

(١) سورة القيامة : ٢٦ - ٣٠ .

(٢) سورة فصلت : ٣٠ - ٣٢ .

(٣) تفسير ابن كثير : (١٧٤/٦) .

(٤) سورة فصلت : ٣٠ .

(٥) سورة فصلت : ٣٢ .

فإن الله يتولاه دائما ، وخاصة في المواقف الصعبة ، ومن أشقها هذا الموقف ،
﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ (١)

أما الكفرة الفجرة فإن الملائكة تنزل عليهم بنقيض ذلك ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْتَ مَاؤُنْهَمُ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (٢) ، وقد نزلت هذه الآية كما أخرج البخاري عن ابن عباس في فريق أسلم ولكنه لم يهاجر فأدرکه الموت ، أو قتل في صفوف الأعداء (٣) ، فإن الملائكة تفرع هؤلاء في حال الاحتضار وتوخيهم ، وتبشرهم بالنار .

وقد حدثنا ربنا عن توفى الملائكة للكفرة في معركة بدر ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (٤) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَمِيدِ ﴿ (٤) .

قال ابن كثير في تفسير الآيات : «ولو ترى يا محمد حال توفى الملائكة أرواح الكفار لرأيت أمرا عظيما فظيما منكرا ، إذ يضربون وجوههم وأدبارهم ويقولون ذوقوا عذاب الحريق» (٥) .

وقد أشار المفسر المدقق العلامة ابن كثير إلى أن هذا وإن كان في وقعة بدر ، ولكنه عام في حق كل كافر ، ولهذا لم يخصه تعالى بأهل بدر ، بل قال : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ . . ﴾ (٦) .

(١) سورة فصلت : ٣١ .

(٢) سورة النساء : ٩٧ .

(٣) تفسير ابن كثير : (٣٦٩/٢) .

(٤) سورة الأنفال : ٥٠ - ٥١ .

(٥) تفسير ابن كثير : (٣٣٥/٣) .

(٦) تفسير ابن كثير : (٣٣٥/٣) .

وهذا الذي قاله ابن كثير صحيح يدل عليه أكثر من آية في كتاب الله تعالى ،
 كقوله : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ : أُولَئِكَ يَنَالُهُمُ
 نَصِيحُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتُوفَوْنَهُمْ قَالُوا إِنَّمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ
 اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَيْنَا أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ (١) ، وقوله :
 ﴿ الَّذِينَ يُتُوفَوْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ
 بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ (٢) وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آرَدُوا عَلَيْنَا آدْبِرَهُمْ مِنْ بَعْدِ
 مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ
 كَرَهُوا مَا نَزَلَ اللَّهُ سُنْطِعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٣٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا
 تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَآدْبِرَهُمْ ﴿٣١﴾ (٣) .

(١) سورة الأعراف : ٢٧ .

(٢) سورة النحل : ٢٨ .

(٣) سورة محمد : ٢٥ - ٢٧ .

المَبْحَثُ الثَّانِي

سَكَرَاتُ الْمَوْتِ

للموت سكرات يلاقيها كل إنسان حين الاحتضار ، كما قال تعالى :
﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾^(١) ، وسكرات الموت
كرباته وغمراته ، قال الراغب في مفرداته : « السكر حالة تعرض بين المرء
وعقله ، وأكثر ما تستعمل في الشراب المسكر ، ويطلق في الغضب والعشق والألم
والنعاس والغشى الناشيء عن الألم وهو المراد هنا »^(٢) وقد عانى الرسول ﷺ من
هذه السكرات ، ففي مرض موته صلوات الله وسلامه عليه كان بين يديه ركوة أو
علبة فيها ماء ، فجعل يدخل يده في الماء فيمسح بها وجهه ، ويقول : « لا إله إلا
الله ، إن للموت سكرات »^(٣) ، وتقول عائشة رضي الله عنها في مرض رسول
الله ﷺ : « ما رأيت الوجع على أحد أشدَّ منه على رسول الله ﷺ »^(٤) وقد دخلت
عائشة رضي الله عنها على أبيها أبي بكر رضي الله عنه في مرض موته ، فلما ثقل
عليه ، تمثلت بقول الشاعر :

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

(١) سورة ق : ١٩ .

(٢) فتح الباري (٣٦٢/١١) .

(٣) هذا الحديث أخرجه البخاري عن عائشة في كتاب الرقاق ، باب سكرات الموت ، فتح الباري :

(٣٦١/١١) .

(٤) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي ، انظر جامع الأصول : (٦٩/١١) .

فكشفت عن وجهه ، وقال رضي الله عنه ، ليس كذلك ، ولكن قولي :
﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ (١) (٢) .

ولا شك أن الكافر والفاجر يعانيان من الموت أكثر مما يعاني منه المؤمن ، فقد
سقنا طرفا من حديث البراء بن عازب وفيه : أن روح الفاجر والكافر تفرق في
جسده عندما يقول لها ملك الموت : أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله
وغضب ، وأنه ينتزعها كما ينتزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبلول ،
فتقطع معها العروق والعصب ، ووصف لنا القرآن الكريم الشدة التي يعاني منها
الكفرة ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ
قَالَ سَأَنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ
بِأَسْطُورَاتِ أَيْدِيهِمْ أُخْرِجُوا أَنفُسَهُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى
اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٣) .

وهذا الذي وصفته الآية يحدث - كما يقول ابن كثير- إذا بشر ملائكة
العذاب الكافر بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب
الرحمن ، فتتفرق روحه في جسده وتعصي وتأبى الخروج ، فتضربهم الملائكة حتى
تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين ﴿ أُخْرِجُوا أَنفُسَهُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ
الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ (٤) ، وقد فسر ابن كثير بسط الملائكة
أيديهم في قوله : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بِأَسْطُورَاتِ أَيْدِيهِمْ ﴾ (٥) بالضرب ، ومعنى الآية هنا

(١) سورة ق : ١٩ .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا ، وقد قال ابن كثير في تفسيره (٤٠١/٦) بعد سياقه له : لهذا الأثر طرق كثيرة .

(٣) سورة الأنعام : ٩٣ .

(٤) سورة الأنعام : ٩٣ .

(٥) سورة الأنعام : ٩٣ .

كمعناها في قوله ﴿لَنْ بَسَطَ إِلَىٰ يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي﴾^(١) ، وقوله : ﴿وَيَسْطُورًا إِلَىٰ الْبُكَرِ
 أَيْدِيهِمْ وَالسِّبْطَ بِالسُّوءِ﴾^(٢) وقد يحدث العقلاء في حال الاحتضار عما يعانونه من
 شدة الموت وسكراته ، ومن حدث بهذا عمرو بن العاص ؛ فعندما حضرته
 الوفاة ، قال له ابنه : يا أبته ! إنك لتقول : يا ليتني ألقى رجلا عاقلا لبيبا عند
 نزول الموت حتى يصف لي ما يجيد ، وأنت ذلك الرجل ، فصف لي ، فقال : يا
 بني ، والله كأن جنبي في تحت ، وكأني أتنفس من سم إبرة ، وكأن غصن شوك
 يجذب من قدمي إلى هامتي ، ثم أنشأ يقول :

ليتني كنت قبل ما قد بدالي في تلال الجبال أرعى الوعولا^(٣)

الذي يخفف عنه سكرات الموت

أخبرنا الرسول ﷺ أن الشهيد الذي يسقط في المعركة تخفف عنه سكرات
 الموت ، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « الشهيد لا يجيد
 ألم القتل إلا كما يجيد أحدكم ألم القرصة » رواه الترمذي والنسائي والدارمي ، وقال
 الترمذي : هذا حديث حسن غريب^(٤) .

(١) سورة المائدة : ٢٨ .

(٢) سورة الممتحنة : ٢ .

(٣) التذكرة ، للقرطبي : ص ١٩ .

(٤) مشكاة المصابيح : (٣٥٨/٢) ورقم الحديث : (٣٨٣٦) ، وقال محقق المشكاة : إسناده حسن .

المبحث الثالث

تمني الإنسان الرجعة عند الاحتضار

إذا نزل الموت بالإنسان تمنى العودة إلى الدنيا ، فإن كان كافرا لعله يسلم ، وإن كان عاصيا فلعله يتوب ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ (١) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١﴾ ، والإيمان لا يقبل إذا حضر الموت ، والتوبة لا تنفع إذا غرغر العبد ، ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (٢) وَلَيْسَ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْعَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣﴾ ، وقد ساق الحافظ ابن كثير من الأحاديث ما يدل على أن الله يقبل توبة العبد إذا حضره الموت ما لم يصل إلى درجة الغرغرة « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » رواه الترمذي وابن ماجه (٣) ، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب ، ولكن شرط التوبة الإخلاص والصدق ، وقد لا يتمكن المرء من التوبة في تلك الأحوال ، فعلى المرء أن يسارع بالتوبة قبل حلول الأجل :

قدم لنفسك توبة مرجوة قبل الممات وقبل حبس الألسن
بادر بها غلق النفوس فإنها ذخر وغنم للمنيب المحسن

(١) سورة المؤمنون : ٩٩ - ١٠٠ .

(٢) سورة النساء : (١٧ - ١٨) .

(٣) تفسير ابن كثير : (٢٢٤/٣) .

المبحث الرابع فرح المؤمن ببقاء ربه

إذا جاءت ملائكة الرحمن العبد المؤمن بالبشرى من الله ظهر عليه الفرح والسرور ، أما الكافر والفاجر فإنه يظهر عليه الضيق والحزن والتعب ، ومن ثم فإن العبد المؤمن في حال الاحتضار يشفق إلى لقاء الله ، والعبد الكافر أو الفاجر يكره لقاء الله تعالى ، فقد روى أنس بن مالك عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ أنه قال : « من أحب لقاء الله أحب لقاء الله ، ومن كره لقاء الله كره لقاءه ، قالت عائشة أو بعض أزواجه : إنا لنكره الموت ، قال : ليس كذلك ، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته ، فليس شيء أحب إليه مما أمامه ، فأحب لقاء الله وأحب لقاءه ، وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته ، فليس شيء أكره إليه مما أمامه ، فكره لقاء الله ، وكره لقاءه »^(١) ولذلك فإن العبد الصالح يطالب حامله بالإسراع به إلى القبر شوقاً منه إلى النعيم ، بينما العبد الطالح ينادي بالويل من المصير الذاهب إليه، ففي صحيح البخاري وسنن النسائي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم ، فإن كانت صالحة قالت : قدموني ، وإن كانت غير صالحة قالت لأهلها يا ويلها أين يذهبون بها؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ، ولو سمع الإنسان لصعق »^(٢) .

(١) رواه البخاري : كتاب الرقاق ، باب من أحب لقاء الله أحب لقاءه ، انظر فتح الباري (٣٥٧/١١) .

(٢) رواه البخاري ، كتاب الجنائز ، قول الميت وهو على الجنازة : قدموني ، فتح الباري : (٣) / (١٨٤) ، ورواه النسائي كتاب الجنائز ، باب السرعة في الجنازة : (٤١/٤) .

المبحث الخامس

حضور شيطان عند الموت

إذا حضر الموت كان الشيطان حريصا على الإنسان حتى لا يفلت منه ، ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه ، حتى يحضره عند طعامه ، فإذا سقطت من أحدكم اللقمة ، فليمط ما كان بها من أذى ، ثم ليأكلها ، ولا يدعها للشيطان ، فإذا فرغ فليلق أصابعه ، فإنه لا يدري في أي طعامه تكون البركة » ، وقد ذكر علماؤنا أن الشيطان يأتي الإنسان في تلك اللحظات الحرجة في صورة أبيه أو أمه أو غيرهم ممن هو شفيق عليه ناصح له ، ويدعوه إلى اتباع اليهودية أو النصرانية أو غيرها من المبادئ المعارضة للإسلام ، فهناك يزيغ الله من كتبت له الشقاوة^(١) ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾^(٢) وقد حدث عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل قال : حضرت وفاة أبي أحمد ، وييدي خرقة لأشدّ لحييه ، فكان يفرق ، ثم يفيق ، ويقول بيده : لا بعد ، لا بعد ، فعل هذا مرارا ، فقلت له : يا أبت أي شيء يبدو منك ؟ فقال : إن الشيطان قائم بحدائي عاض على أنامله ، يقول : يا أحمد فتني ، وأنا أقول : لا بعد ، لا بعد ، حتى أموت^(٣) .

(١) انظر تذكرة القرطبي : ٣٣ .

(٢) سورة آل عمران : ٨ .

(٣) تذكرة القرطبي : ٣٤ .

وقال القرطبي : سمعت شيخنا الإمام أبا العباس أحمد بن عمر القرطبي ، يقول : حضرت أبا شيخنا أبي جعفر أحمد بن محمد القرطبي بقرطبة ، وقد احتضر ، فقيل له : قل لا إله إلا الله ، فكان يقول : لا لا ، فلما أفاق ، ذكرنا له ذلك ، فقال : أتاني شيطانان عن يميني وعن شمالي ، يقول أحدهما : مت يهوديا فإنه خير الأديان ، والآخر يقول : مت نصرانيا فإنه خير الأديان ، فكنت أقول لهما : لا لا ...» (١) .

ولكن هذا ليس لازما لكل أحد كما يقول ابن تيمية ، بل من الناس من تعرض عليه الأديان قبل موته ، ومنهم من لا تعرض عليه ، وقد وقع ذلك لأقوام ، وهذا كله من فتنة المحيا والممات التي أمرنا أن نستعيذ بها في صلاتنا (٢) ، وقد ذكر الشيخ ابن تيمية أن الشيطان أحرص ما يكون على إغواء الإنسان وقت موته ، لأنه وقت الحاجة ، واستدل بالحديث الذي في الصحيح : « الأعمال بخواتيمها » ، وقال ﷺ : « إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن العبد ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة ، فيدخلها » ، ولهذا روي : « أن الشيطان أشد ما يكون على ابن آدم حين الموت ، يقول لأعوانه : دونكم هذا فإنه إن فاتكم لن تظفروا به أبدا » (٣) .

(١) التذكرة للقرطبي : ٣٤ .

(٢) مجموع الفتاوى : (٢٥٥/٤) .

(٣) مجموع الفتاوى : (٢٥٦/٤) .

المبحث السادس

أسباب سوء الخاتمة

بعض الذين يظهرون الإسلام ويعملون به يختم لهم والعياذ بالله بخاتمة سيئة ، وقد تبدو تلك الخاتمة من بعض من حضرهم الموت ، وقد تحدث صديق حسن خان عن سوء الخاتمة فقال : « وله أسباب يجب على المؤمن أن يجتري عنها »^(١) ، ثم ذكر هذه الأسباب فقال :

١ - منها الفساد في الاعتقاد : وإن كان مع كمال الزهد والصلاح ، فإن كان له فساد في اعتقاده مع كونه قاطعاً به متيقناً له غير ظان أنه أخطأ فيه قد ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده من الاعتقادات الحققة مثل هذا الاعتقاد باطل لا أصل له إن لم يكن عنده فرق بين اعتقاد واعتقاد ، فيكون انكشاف بطلان بعض اعتقاداته سبباً لزوال بقية اعتقاداته ، فإن خروج روجه في هذه الحالة قبل أن يتدارك ويعود إلى أصل الإيمان يختم له بالسوء ويخرج من الدنيا بغير إيمان ، فيكون من الذين قال الله تعالى فيهم ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَالَمَ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾^(٢) وقال في آية أخرى : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾^(٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾^(٤) .

فإن كل من اعتقد شيئاً على خلاف ما هو عليه إما نظراً برأيه وعقله أو أخذاً

(١) بقظة أولي الاعتبار : ٢١١ .

(٢) سورة الزمر : ٤٧ .

(٣) سورة الكهف : ١٠٣ - ١٠٤ .

من هذا حاله فهو واقع في هذا الخطر ، ولا ينفعه الزهد والصلاح ، وإنما ينفعه الاعتقاد الصحيح المطابق لكتاب الله وسنة رسوله ، لأن العقائد الدينية لا يعتد بها إلا ما أخذت منها .

٢ - ومنها الإصرار على المعاصي ، فإن من له إصرار عليها يحصل في قلبه إلفها ، وجميع ما ألفه الإنسان في عمره يعود ذكره عند موته ، فإن كان ميله إلى الطاعات أكثر يكون أكثر ما يحضره عند الموت ذكر الطاعات ، وإن كان ميله إلى المعاصي أكثر يكون أكثر ما يحضره عند الموت ذكر المعاصي ، فربما يغلب عليه حين نزول الموت به قبل التوبة شهوة ومعصية من المعاصي فيتقيد قلبه بها وتصير حجاباً بينه وبين ربه ، وسبباً لشقاوته في آخر حياته لقوله ﷺ : « المعاصي بريد الكفر » .

والذي لم يرتكب ذنباً أصلاً ، أو ارتكب وتاب فهو بعيد عن هذا الخطر ، وأما الذي ارتكب ذنباً كثيرة حتى كانت أكثر من طاعاته ولم يتب عنها . بل كان مصراً عليها ، فهذا الخطر في حقه عظيم جداً إذ قد يكون غلبة الإلف بها سبباً لأن يتمثل في قلبه صورتها ، ويقع منه ميل إليها وتقبض روحه عليها فيكون سبباً لسوء خاتمته .

ويعرف ذلك بمثال ، وهو أن الإنسان لاشك أنه يرى في منامه من لأحوال التي ألفها طول عمره ، حتى أن الذي قضى عمره في العلم يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء ، والذي قضى عمره في الخياطة يرى من الأحوال المتعلقة بالخياطة والخياط ، إذ لا يحضر في حال النوم إلا ما حصل له مناسبة مع قلبه لطول الألف. والموت وإن كان فوق النوم لكن سكراته وما يتقدمه من الغشى قريب من النوم ، فطول الإلف بالمعاصي يقتضي تذكرها عند الموت وعودها في القلب وتمثلها فيه وميل النفس إليها ، وإن قبض روحه في تلك الحالة يختم له بالسوء .

قال الذهبي في الكبائر : « قال مجاهد : ما من ميت يموت إلا مُثِّل له جلساؤه الذين كان يجالسهم ، فاحضر رجل ممن كان يلعب بالشطرنج ، فقيل له : قل : لا إله إلا الله . فقال : شاهك . ثم مات . فغلب على لسانه ما كان يعتاده حال حياته في اللعب ، فقال عوض كلمة التوحيد : شاهك .

وهذا كما جاء في إنسان آخر ممن كان يجالس شراب الخمر أنه حين حضره الموت ، فجاءه إنسان يلقنه الشهادة ، فقال له : اشرب واسقني . ثم مات ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » (١) .

٣ - ومنها العدول عن الاستقامة : (٢) فإن من كان مستقيماً في ابتدائه ثم تغير عن حاله وخرج مما كان عليه في ابتدائه يكون سبباً لسوء خاتمته ، كإبليس الذي كان في ابتدائه رئيس الملائكة ومعلمهم وأشدهم اجتهاداً في العبادة ، ثم لما أمر بالسجود لأدم أبي واستكبر وكان من الكافرين ، وكبلعام بن باعور الذي آتاه الله آياته فانسلك بإخلاقه إلى الدنيا ، واتبع هواه وكان من الغاوين ، وكبرصيصا العابد الذي قال له الشيطان اكفر ، فلما كفر ، قال : إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ، فإن الشيطان أغراه على الكفر ، فلما كفر تبرأ منه مخافة أن يشاركه في العذاب ولم ينفعه ذلك ، كما قال تعالى :

﴿ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣)

٤ - ومنها ضعف الإيمان : فإن كان في إيمانه ضعف يضعف حب الله تعالى فيه ، ويقوى حب الدنيا في قلبه ، ويستولي عليه بحيث لا يبقى فيه موضع لحب الله

(١) الكبائر للذهبي : ص ٩١ .

(٢) بقظة أولي الاعتبار : ص ٢١٢ .

(٣) سورة الحشر : ١٧ .

تعالى ، إلا من حيث حديث النفس بحيث لا يظهر له أثره في مخالفة النفس ، ولا يؤثر في الكف عن المعاصي ، ولا في الحث على الطاعات ، فينهمك في الشهوات وارتكاب السيئات ، فتتراكم ظلمات الذنوب على القلب ، فلا تزال تغطي مافيه من نور الإيمان مع ضعفه ، فإذا جاءت سكرات الموت يزداد حب الله ضعفا في قلبه لما يرى أنه يفارق الدنيا ، وهي محبوبة له ، وحبها غالب عليه لا يريد تركها ، ويتألم من فراقها ، ويرى ذلك منه الله تعالى ، فيخشى أن يحصل في باطنه بغضه تعالى بدل الحب ، وينقلب ذلك الحب الضعيف بغضا ، فإن خروج روحه في اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة ينحتم له بالسوء ويهلك هلاكاً مؤبداً .

والسبب المفضي إلى هذه الخاتمة حب الدنيا ، والركون إليها ، والفرح بها مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله تعالى ، وهو الداء العضال الذي قد عم أكثر الخلق ، فإن من يغلب على قلبه عند الموت أمر من أمور الدنيا يتمثل ذلك الأمر في قلبه ، ويستغرقه ، حتى لا يبقى لغيره متسع ، فإن خرج روحه في تلك الحالة يكون رأس قلبه منكوساً إلى الدنيا ، ووجهه مصروفاً إليها ، ويحصل بينه وبين ربه حجاب .

حكى أن سليمان بن عبد الملك لما دخل المدينة حاجا قال : هل بها رجل أدرك عدة من الصحابة ؟ قالوا نعم ، أبو حازم ، فأرسل إليه ، فلما أتاه قال : يا أبا حازم مالنا نكره الموت ؟ قال : إنكم عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة ، فتكروهون الخروج من العمران إلى الخراب ، قال : صدقت ، ثم قال : ليت شعري مالنا عند الله تعالى ؟ قال : اعرض عملك على كتاب الله ، قال فأين أجده ؟ قال في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا الْأَبْرَارَ لَنِي نَعِيبُ ﴾ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَنِي جَعِيبٌ ﴿ (١٤) .

(١) سورة الانفطار : ١٣ - ١٤ .

قال : فأين رحمة الله ؟ قال : رحمة الله قريب من المحسنين .

قال : يا ليت شعري كيف العرض على الله تعالى غداً ؟ قال أما المحسن فكالغائب الذي يقدم على أهله ، وأما المسيء فكالأبق يقدم على مولاه ، فبكي سليمان حتى علا صوته وأشدت بكاؤه ثم قال : أوصني ، قال إياك أن يراك الله تعالى حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك » .

ونقل صديق حسن خان عن الغزالي في «الاحياء» أن سوء الخاتمة على رتبتين : إحداهما أعظم من الأخرى ، فأما الرتبة العظيمة الهائلة فهي أن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله إما الشك وإما الجحود ، فتقبض الروح على تلك الحالة فتكون حجاباً بينه وبين الله تعالى أبداً ، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد .

والثانية : وهي دونها أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا أو شهوة من شهواتها ، فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره ، فمهما اتفق قبض الروح في حالة غلبة حب الدنيا ، فالأمر خطر ، لأن المرء يموت على ما عاش عليه ، وعند ذلك تعظم الحسرة إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ في القلب مدة طويلة وتأكد ذلك بالأعمال الصالحة يحو عن القلب هذه الحالة التي عرضت له عند الموت ، فإن كان إيمانه في القوة إلى حد مثقال أخرجته من النار في زمان أقرب ، وإن كان أقل من ذلك طال مكثه في النار ، ولكن لو لم يكن إلا مثقال حبة فلا بد وأن يخرج من النار ، ولو بعد آلاف السنين ، وكل من اعتقد في الله تعالى وفي صفاته وأفعاله شيئاً على خلاف ما هو به إما تقليداً وإما نظراً بالرأي والمعقول فهو في هذا الخطر ، والزهد والصلاح لا يكفي لدفع هذا الخطر ، بل لا ينجي منه إلا الاعتقاد الحق على وفق الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، والبُلهُ بمعزل عن هذا الخطر^(١) .

(١) بقظة أولى الاعتبار : ص ٢١٦ .

المبحث السابع تخيير الأنبياء عند الموت

عندما يحضر الأنبياء الموت فإن الله يرهم ما لهم عنده من الثواب الجزيل والأجر العظيم ، ثم يخبرون بين البقاء في الدنيا والانتقال إلى ذلك المقام الكريم ، ولا شك أن كل رسول يفضل النعيم المقيم ، وقد حدث هذا لرسولنا ﷺ ، خَيْرٌ فاختار ؛ ففي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يقول وهو صحيح : « إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير ، فلما نزل به ورأسه على فخذي غشي عليه ساعة ، ثم أفاق ، فأشخص بصره إلى السقف ثم قال : اللهم الرفيق الأعلى ، قلت : إذن لا يختارنا ، وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا به ، قالت : « فكانت تلك آخر كلمة تكلم بها النبي ﷺ قوله : اللهم في الرفيق الأعلى »^(١) وجاء في إحدى رواياته^(٢) : « فسمعت النبي ﷺ في مرضه الذي مات فيه : وأخذته بحةٌ يقول ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾^(٣) » قالت فظننت أنه خيرٌ يومئذ .

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق ، باب من أحب لقاء الله ، فتح الباري : (٣٥٧/١١) ، وقد أخرجه أيضا مسلم في صحيحه ، ومالك في موطئه ، والترمذي في سننه ، وقد ساق روايات الحديث عن عائشة ابن الأثير في جامع الأصول : (٦٧/١١) .

(٢) وهي عند جمعهم .

(٣) سورة النساء : ٦٩ .

الفصل الثالث

رحلة الروح إلى السماء نزعها

عن أبي هريرة عند مسلم قال : « إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان - يصعدانها » قال حماد^(١) « فذكر من طيب ريحها ، وذكر المسك » قال : « ويقول أهل السماء : روح طيبة جاءت من قبل الأرض ، صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمريه ، فينطلق به إلى ربه عز وجل ، ثم يقول : انطلقوا به إلى آخر الأجل » .

قال : « وإن الكافر إذا خرجت روحه - قال حماد وذكر من نتنها ، وذكر لعنا - ويقول أهل السماء : روح خبيثة من قبل الأرض ، قال : فيقال : انطلقوا به آخر الأجل »^(٢) .

وقد ذكر الرسول ﷺ في حديث البراء التكريم الذي يكون لروح العبد الصالح بعد خروجها من جسده ، حيث تصلي ملائكة الله على تلك الروح الطيبة ، وتفتح لها أبواب السماء ، وتجعل في كفن من الجنة وحنوط من الجنة ، وتخرج منها روائح طيبة عطرة تفوق رائحة المسك ، ثم تأخذها الملائكة في رحلة علوية كريمة ، وتفتح لها أبواب السماء ، أما الروح الخبيثة ، فتلعنها ملائكة السماء

(١) أحد رواة حديث أبي هريرة عند مسلم .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب عرض مقعد الميت ، (٢٢٠٢/٤) حديث رقم : (٢٨٧٢) .

عند خروجها ، وتغلق أبواب السماء دونها ، ويدعو كل فريق من ملائكة الرحمن على باب ألا تعرج من قبلهم ، وتجعل تلك الروح الخبيثة في حنوط من النار وكفن من النار ، وتفوح منها الروائح الخبيثة التي تؤذي ملائكة الرحمن ، ويعرج بها إلى السماء فلا تفتح لها أبواب السماء ، فتلقى روحه من شاهق ، ففي حديث البراء بن عازب الذي يصف الرسول ﷺ فيه رحلة الإنسان من الموت إلى البرزخ قال : « حتى إذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض ، وكل ملك في السماء ، وفتحت له أبواب السماء ، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله أن يعرج من قبلهم ، فإذا أخذها (يعني ملك الموت) لم يدعوها في يده طرفة عين ، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن ، وفي ذلك الحنوط ، [فذلك قوله تعالى : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴾] (١) ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، قال : فيصعدون بها ، فلا يمرون - يعني - بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟ فيقولون : فلان ابن فلان - بأحسن أسمائه التي كان يسمونه بها في الدنيا ، حتى ينتهوا إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له ، فيفتح لهم ، فيشيعه من كل سماء مقربوها ، إلى السماء التي تليها ، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدي في عليين ، ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلِيُّونَ ﴿١٦﴾ كَتَبْنَا مَرَقُومًا ﴿١٧﴾ بِشَهَادَةِ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ (٢) ، فيكتب كتابه في عليين ، ثم يقال : أعيده إلى الأرض فإني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى . » .

وتحدث الرسول ﷺ عن الروح الخبيثة التي نزع من العبد الكافر أو الفاجر ، فقال عنها بعد نزعها : « [فيلعنه كل ملك بين السماء والأرض ، وكل

(١) سورة الأنعام : ٦١ .

(٢) سورة المطففين : ١٩ - ٢١ .

ملك في السماء ، وتغلق أبواب السماء ، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله ألا تعرج روحه من قبلهم] ، فيأخذها ، فإذا أخذها ، لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ، ويخرج منها كائن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ فيقولون : فلان ابن فلان ، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا ، حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا ، فيستفتح له ، فلا يفتح له ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ (١) ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سجين ، في الأرض السفلى [ثم يقول : أعيدوا عبدي إلى الأرض ، فإني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى ، فتطرح روحه من السماء ، طرحا [حتى تقع في جسده] ، ثم قرأ : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ أَرْضٌ مَوْجِدٌ فِي مَكَانٍ صَحِيحٍ ﴾ (٢) ، فتعاد روحه إلى جسده . (٣) .

وروى ابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « إن الميت تحضره الملائكة ، فإذا كان الرجل صالحا ، قال : اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، اخرجي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، ورب غير غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقول : فلان ، فيقال : مرحبا بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، ادخلي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، ورب غير

(١) سورة الأعراف : ٤٠ .

(٢) سورة الحج : ٣١ .

(٣) حديث صحيح ، سبق تخريجه ص : ٢٠ .

غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله تبارك وتعالى^(١) ، فإذا كان الرجل السوء : قال : اخرجني أيتها النفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، اخرجني ذميمة ، وأبشري بحميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال ، من هذا ؟ فيقال : فلان ، فيقال : لا مرحبا بالنفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، ارجعي ذميمة ، فإنها لا تفتح لك أبواب ، فترسل من السماء ، ثم تصير إلى القبر . . . »^(٢) .

(١) ليس المراد أن السماء تحوي الله وتحصره ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، بل الله فوق سماواته بائن من خلقه ، وقد قال الحق في كرسيه ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ سورة البقرة : ٢٥٥ . وأخبر الرسول ﷺ أن السموات في الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض ، والكرسي في العرش كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض ، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ ولأصلبكنم في جذوع النخل ﴾ سورة طه : ٧١ وقوله : ﴿ فسيحوا في الأرض ﴾ سورة براءة : ٢ ليس المراد أنهم في جوف النخل ، وجوف الأرض ، بل معنى ذلك أنه تبارك وتعالى فوق السموات وعليها ، وهذا الحديث مثل قوله تبارك وتعالى : ﴿ أأنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض ﴾ سورة الملك / ١٦ أي في العلو ، ومثل قول الرسول ﷺ للجارية « أين الله ؟ قالت : في السماء ، قال عليه السلام : أعتقها فإنها مؤمنة » والحديث رواه مسلم في صحيحه .

(٢) رواه ابن ماجه في سننه وقد صححه الشيخ ناصر في صحيح الجامع الصغير : (٢ / ١٦٩) .

الفصل الرابع

القبر

المبحث الأول

هول القبر وفظاعته

روى هانيء مولى عثمان بن عفان ، قال : كان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى ، حتى يبيل لحيته ، فقبل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكي ، وتذكر القبر فتبكي ؟ فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه ، قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : ما رأيت منظراً قط إلا القبر أفظع منه »^(١) أخرجه الترمذي^(٢) ، ولما كان مابعد القبر أيسر منه لمن نجا فإن العبد المؤمن إذا رأى في قبره ما أعد الله له من نعيم يقول : « رب عجل قيام الساعة ، كيما أرجع إلى أهلي ومالي »^(٣) والعبد الكافر الفاجر إذا رأى ما أعد الله له من العذاب الشديد فإنه يقول

(١) أفظع : الفظيع : الشديد الشنيع .

(٢) رواه الترمذي ، وابن ماجه ، وقال الترمذي : هذا حديث غريب ، انظر مشكاة المصابيح :

(٤٨/١) وجامع الأصول : (١١/١٦٤) ، وقال الشيخ ناصر في تعليقه على المشكاة : « وسنده

حسن » ، وانظر صحيح الجامع الصغير : (٨٥/٢) .

(٣) هذه قطعة من حديث البراء ، وقد سبق تخريجه في ص : ٢٠ .

على الرغم مما هو فيه من عذاب : « رب لا تقم الساعة »^(١) ، لأن الآتي أشد وأفطع .

ظلمة القبر

ماتت امرأة كانت تقم المسجد في عهد الرسول ﷺ ، ففقدتها الرسول ﷺ ، فأخبروه أنها ماتت من الليل ، ودفنوها ، وكرهوا إيقاظه ، فطلب من أصحابه أن يدلوه على قبرها ، فجاء إلى قبرها فصلى عليها ، ثم قال : « إن هذه القبور مليئة ظلمة على أهلها ، وإن الله عز وجل منورها لهم بصلاتي عليهم » رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه والبيهقي وأحمد^(٢) .

(١) هذه قطعة من حديث البراء ، انظر تحريجه في ص ٢٠
(٢) أحكام الجنائز : ص ٨٧ .

المَبْحَثُ الثَّانِي

ضَمَّةُ الْقَبْرِ

عندما يوضع الميت في القبر فإنه يضمه ضمة لا ينجو منها أحد كبيرا كان أو صغيرا، صالحا أو طالحا، فقد جاء في الأحاديث أن القبر ضم سعد بن معاذ، وهو الذي تحرك لموته العرش، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفا من الملائكة، ففي سنن النسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «هذا الذي تحرك له العرش، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفا من الملائكة، لقد ضم ضمة، ثم فرج عنه»^(١) وفي مسند الإمام أحمد عن ابن عمر أيضا أن الرسول ﷺ قال: «إن للقبر ضغطة لو كان أحد ناجيا منها نجا سعد بن معاذ» رواه أحمد في مسنده^(٢) وفي مسندي الطبراني الكبير والأوسط عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن الرسول ﷺ قال: «لو نجا أحد من ضمة القبر، لنجا سعد بن معاذ، ولقد ضمَّ ضمة، ثم روحي عنه»^(٣). ومما يدل على أن ضمة القبر لازمة لكل إنسان أن الصبيان لا ينجون منها، ففي مسند الطبراني الكبير عن أبي أيوب الأنصاري بإسناد صحيح وهو في مسنده الأوسط، وفي الكامل لابن عدي عن أنس أن الرسول ﷺ قال: «لو أفلت أحد من ضمة القبر لنجا هذا الصبي»^(٤).

-
- (١) رواه النسائي، في كتاب الجنائز، باب ضمة القبر وضغطته، (٤/١٠٠)، وقال الشيخ ناصر الدين الألباني في مشكاة المصابيح، (١/٤٩): وسنده صحيح على شرط مسلم.
- (٢) قال الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح الجامع (٢/٢٣٦) إسناده صحيح.
- (٣) قال في صحيح الجامع (٥/٧١) إسناده صحيح.
- (٤) صحيح الجامع: (٥/٥٦).

المبحث الثالث

فتنة القبر

المطلب الأول

كيف تكون فتنته

إذا وضع العبد في قبره جاءتته ملائكة على صورة منكرة، ففي سنن الترمذي « إذا قبر الميت - أو قال : أحدكم - أتاه ملكان أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما : المنكر ، وللآخر : النكير ، فيقولان ، ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : ما كان يقول ، هو عبد الله ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله .. وإن كان منافقا قال : سمعت الناس يقولون قولا ، فقلت مثله ، لا أدري ... »^(١) .

وجاء في الحديث الذي يرويه البراء بن عازب عن الرسول ﷺ : « فيأتيه ملكان [شديد الانتهاز] ف [ينتهرانه ، و] يجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ ما دينك ؟ من نبيك ؟ وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن ، فذلك حين يقول الله عز وجل : ﴿ يَبَيِّنُ اللَّهُ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِأَلْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾^(٢) ، فيقول : ربي

(١) رواه الترمذي ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر ، (٣/٣٨٣) وقال الترمذي : حديث حسن غريب ، وقال محقق الكتاب الشيخ أحمد شاكر : لم يخرج من أصحاب الكتب الستة سوى الترمذي ، وقد رمز له الشيخ ناصر الدين الألباني بالحسن في صحيح الجامع الصغير : (١/٢٥٩) ، وأورده في سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم (١٣٩١) .

(٢) سورة إبراهيم : ٢٧ .

الله ، وديني الإسلام ، ونبي محمد ﷺ ، فينادي مناد من السماء : أن صدق عبدي » وقال في العبد الكافر أو الفاجر : « ويأتيه ملكان [شديدا الانتهار ، فيتهرانه ، و] يجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه ، هاه لا أدري ، فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول هاه ، هاه لا أدري ، فيقولان : فما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فلا يهتدي لاسمه ، فيقال : محمد ، فيقول : هاه ، هاه ، لا أدري ، [سمعت الناس يقولون ذاك ، قال : فيقولان : لا دريت [ولا تلوت] (١) فينادي منادي أن كذب عبدي] (٢) .

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن العبد إذا وضع في قبره ، وتولى عنه أصحابه ، إنه ليسمع قرع نعالهم ، إذا انصرفوا : أتاه ملكان ، فيقعدانه ، فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ، محمد ؟ فأما المؤمن ، فيقول : أشهد أنه عبدالله ورسوله . . . وأما الكافر أو المنافق ، وفي رواية : وأما الكافر والمنافق - فيقول : لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس فيه ، فيقال : لا دريت ، ولا تليت . . . » رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي (٣) .

ولم يكن الرسول ﷺ يعلم في أول الأمر أن هذه الأمة تفتن في قبورها ، ثم أوحى الله له بهذا العلم ، فقد حدث عروة بن الزبير عن خالته عائشة ، قالت : دخل علي رسول ﷺ ، وعندي امرأة من اليهود ، وهي تقول : هل شعرت أنكم تفتنون في القبور ؟ قالت : فارتاع رسول الله ﷺ ، وقال : « إنما تفتن اليهود » ، قالت عائشة : فلبثنا ليالي ، ثم قال رسول الله ﷺ : « هل شعرت أنه أوحى إلى

(١) أي لا دريت ولا تبعت الناس بأن تقول شيئا يقولونه .

(٢) حديث صحيح ، وسبق تخريجه في ص ٢٠ .

(٣) جامع الأصول : (١١/١٧٣) .

تفتنون في القبور، قالت عائشة : فسمعت رسول الله ﷺ ، بعد : يستعبد من عذاب القبر^(١) .

المطلب الثاني هل يفتن الكافر في قبره

دلت الأحاديث التي سقناها على أن الكفار يفتنون في قبورهم ، وقد خالف في ذلك الحكيم الترمذي وابن عبد البر والسيوطي^(٢) ، واحتج الحكيم الترمذي على عدم السؤال بأن الأمم الماضية إن رفضت الاستجابة لرسولها عوجلت بالعذاب ، بخلاف هذه الأمة ، فقد أمسك عنها العذاب ، وبعث الرسول ﷺ بالسيف ، فمن دخل في الإسلام مخافة القتل ، ثم نافق عذب في قبره ، وهذا الذي قاله فيه نظر ، فإن الله لم يهلك مكذبي الأمم بعد نزول التوراة^(٣) ، واحتج ابن عبد البر بقوله عليه السلام في الحديث الصحيح : إن هذه الأمة تبلى في قبورها ، ومنهم من يرويه . تسأل^(٤) ، والأحاديث الصحيحة ترد هذا الفهم ، وتدلل على أن هذا ليس خاصا بالمؤمنين ، وليس خاصا بهذه الأمة .

وقد ذهب إلى أن السؤال عام عبدالحق الإشبيلي ، وابن القيم ، والقرطبي ، والسفاريين وغيرهم^(٥) .

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب استحباب التعوذ من عذاب القبر ، حديث رقم (٥٨٤) ، (٤١٠/١) .

(٢) لوامع الأنوار البهية : (١٠/٢) .

(٣) انظر لوامع الأنوار البهية للسفاري : (١٠/٢) .

(٤) لوامع الأنوار البهية للسفاري : (١٠/٢) ، وتذكرة القرطبي : (١٤٧) .

(٥) لوامع الأنوار البهية للسفاري (١٠/٢) ، وتذكرة القرطبي : (١٤٧) .

المطلب الثالث هل يفتن غير المكلفين

الفتنة عامة لجميع المكلفين إلا النبيين فقد اختلف فيهم^(١) ، وإلا الشهداء والمرابطين ونحوهم ممن جاءت النصوص دالة على نجاتهم من الفتنة كما سيأتي بيانه .

واختلف في غير المكلفين من الصبيان والمجانين ، فذهب جمع من العلماء إلى أنهم لا يفتنون منهم القاضي أبو يعلى وابن عقيل ، ووجهة نظر هؤلاء أن المحنة تكون لمن كلف ، أما من رفع عنه القلم فلا يدخل في المحنة ، إذ لا معنى لسؤاله عن شيء لم يكلف به .

وقال آخرون : بل يفتنون ، وهذا قول أبي الحكيم الهمداني ، وأبي الحسن ابن عبدوس ، ونقله عن أصحاب الشافعي ، وقد روى مالك وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ صلى على طفل ، فقال : « اللهم مه عذاب القبر وفتنة القبر » ، وهذا القول موافق لقول من قال : إنهم يمتحنون في الآخرة ، وأنهم مكلفون يوم القيامة ، كما هو قول أكثر أهل العلم وأهل السنة من أهل الحديث والكلام ، وهو الذي ذكره أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة واختاره ، وهو مقتضى نصوص الإمام أحمد^(٢) .

(١) مجموع الفتاوي : (٢٥٧/٤) .

(٢) راجع مجموع الفتاوي ، لشيخ الإسلام ابن تيمية : (٢٥٧/٤ ، ٢٧٧) .

المَبْحَثُ الرَّابِعُ عَذَابُ الْقَبْرِ وَنَعِيمُهُ

المطلب الأول

أحاديث عذاب القبر ونعيمه متواترة

يقول شارح الطحاوية : « وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلا ، وسؤال الملكين ، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به ، ولا نتكلم في كفيته ، إذ ليس للعقل وقوف على كفيته ، لكونه لا عهد له به في هذه الدار ، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول بل إن الشرع قد يأتي بما تحار فيه العقول ، فإن عودة الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا ، بل تعاد إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا^(١) . »

وقال في موضع آخر : « واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه ، قبر أولم يقبر ، أكلته السباع أو احترق حتى صار رمادا ونسف في الهواء ، أو صلب أو غرق في البحر ، وصل إلى روحه ويده من العذاب ما يصل إلى المقبور ، وما ورد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك ، فيجب أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير »^(٢) .

(١) شرح العقيدة الطحاوية : (٤٥٠) .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية : (٤٥١) .

وأنكرت الملاحدة ومن تمذهب بمذهب الفلاسفة من الإسلاميين عذاب
القبر ، وقالوا : ليس له حقيقة ، واحتجوا لذلك بأنهم يفتحون القبور فلا يرون
شيئا مما أخبرت به النصوص (١) .

وأنكره أيضا الخوارج وبعض المعتزلة كضرار بن عمرو وبشر الميرسي ،
وخالفهم جميع أهل السنة ، وأكثر المعتزلة (٢) .

وهؤلاء كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، وقد ظن هؤلاء أن أبصارهم يمكن أن ترى
كل شيء ، وأن أسماعهم يمكن أن تسمع كل شيء ، ونحن اليوم نعلم من أسرار
الكون ما كانت أسماعنا وأبصارنا عاجزة عن سماعه ورؤيته ، ومن آمن بالله صدق
خبره .

وقد وردت إشارات في القرآن تدل على عذاب القبر ، وقد ترجم البخاري
في كتاب الجنائز لعذاب القبر ، فقال : باب ما جاء في عذاب القبر ، وساق في
الترجمة قوله تعالى : ﴿ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ
أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿ سَنُعَذِّبُهُمْ
مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ (٤) . وقوله تعالى : ﴿ وَحَاقَ بِعَالِ فِرْعَوْنَ
سُوءَ الْعَذَابِ ﴿١٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ
فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (٥) .

والآية الأولى التي ساقها البخاري إنما هي في تعذيب الملائكة الكفار في حال
الاحتضار كما سبق بيانه ، والآية الثانية تدل على أن هناك عذابين سيصيان

(١) انظر تذكرة القرطبي : (١٢٥) .

(٢) فتح الباري : (٢٣٣/٣) .

(٣) سورة الأنعام : ٩٣ .

(٤) سورة التوبة : ١٠١ .

(٥) سورة غافر : ٤٥ .

المنافقين قبل عذاب يوم القيامة ، العذاب الأول ما يصيبهم الله به في الدنيا إما بعقاب من عنده وإما بأيدي المؤمنين ، والعذاب الثاني عذاب القبر ، قال الحسن البصري : « سنعذبهم مرتين : عذاب الدنيا ، وعذاب القبر » (١) ، وقال الطبري : « والأغلب أن إحدى المرتين عذاب القبر ، والأخرى تحتل أحد ما تقدم ذكره من الجوع أو السبي أو القتل والإذلال أو غير ذلك » (٢) .

والآية الثالثة حجة واضحة لأهل السنة الذين أثبتوا عذاب القبر ، فإن الحق تبارك وتعالى قرر أن آل فرعون يعرضون على النار غدوا وعشيا ، وهذا قبل يوم القيامة ، لأنه قال بعد ذلك : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (٣) ، قال القرطبي : « الجمهور على أن هذا العرض يكون في البرزخ ، وهو حجة في تثبيت عذاب القبر » (٤) .

ومن الإشارات القرآنية الواضحة الدالة على فتنه القبر وعذابه قوله تبارك وتعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ (٥) ففي الحديث الذي يرويه البراء بن عازب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « إذا أقعد المؤمن في قبره أتى ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ (٦) ، وفي رواية أخرى : وزاد ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ (٧) نزلت في عذاب القبر » (٨) .

(١) فتح الباري : (٢٣٣/٣) .

(٢) فتح الباري : (٢٣٣/٣) .

(٣) سورة غافر : ٤٦

(٤) فتح الباري : (٢٣٣/١١) .

(٥) سورة إبراهيم : ٢٧ .

(٦) سورة إبراهيم : ٢٧ .

(٧) سورة إبراهيم : ٢٧ .

(٨) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر ، فتح الباري :

(٢٣١/٣) .

وقد روت لنا السيدة عائشة رضي الله عنها « أن يهودية دخلت عليها فذكرت عذاب القبر ، فقالت لها : أعاذك الله من عذاب القبر ، فسألت عائشة الرسول ﷺ عن عذاب القبر ، فقال : نعم ، عذاب القبر . قالت عائشة رضي الله عنها : فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى إلا تعوذ من عذاب القبر » زاد غندر : « عذاب القبر حق » رواه البخاري (١) .

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : « دخلت عليّ عجوزان من عَجُز يهود المدينة ، فقالتا : إن أهل القبور يعذبون في قبورهم ، قالت : فكذبتهما ، ولم أنعم (٢) أن أصدقهما ، فخرجتا ، ودخل رسول الله ﷺ ، فقلت له : يا رسول الله ! إن عجوزين من عجز يهود المدينة دخلتا عليّ ، فرعمتا أن أهل القبور يعذبون في قبورهم ، فقال : « صدقتا ، إنهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم » قالت : فما رأيت بعد في صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر (٣) . ولعظم هذا الأمر وخطورته كان الرسول ﷺ يعلمه لأصحابه ، بل وخطب فيهم مرة به ، ففي صحيح البخاري عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها : قالت : « قام رسول الله ﷺ خطيباً فذكر فتنة القبر التي يفتن فيها المرء فلما ذكر ذلك ضج المسلمون ضجة » رواه البخاري (٤) والنسائي ، وزاد النسائي : « حالت بيني وبين أن أفهم كلام رسول الله ﷺ ، فلما سكنت ضجتهم ، قلت لرجل قريب مني : أي بارك الله لك ، ماذا قال رسول الله ﷺ آخر قوله ؟ قال : قد أوحى إلي : أنكم تفتنون في القبور قريبا من فتنة الدجال » (٥) .

(١) رواه البخاري ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر ، فتح الباري : (٢٣١/٣) .

(٢) (لم أنعم) أي لم تطب نفسي أن أصدقهما .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب المساجد ، باب استحباب التعوذ من عذاب القبر : (٤١١/١) .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر ، فتح الباري : (٢٣٢/٣) .

(٥) رواه النسائي ، انظر جامع الأصول : (١٧٠/١١) .

سماع الرسول ﷺ أصوات المعذنين

وقد أعطى الله رسوله القدرة على سماع المعذنين في قبورهم ، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : « بينا النبي ﷺ في حائط لبني النجار ، على بغلة له ، ونحن معه ، إذ حادت به (١) ، فكادت تلقيه ، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة ، فقال : من يعرف أصحاب هذه الأقبير ؟ فقال رجل : أنا ، قال : فمتى مات هؤلاء ؟ قال : ماتوا في الإشراك ، فقال : إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فلولا أن لا تدافنوا (٢) ، لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه » (٣) وفي صحيحي البخاري ومسلم وسنن النسائي عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : « خرج رسول الله ﷺ بعدما غربت الشمس ، فسمع صوتا ، فقال : يهود تعذب في قبورها » (٤) .

ويدل على سماع الرسول ﷺ للمعذنين في قبورهم الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم في صحيحهما عن ابن عباس وفيه أن الرسول ﷺ مرّ بقبرين ، فقال « إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير . . . » الحديث ، وسيأتي ذكره بتمامه إن شاء الله .

(١) حادت به : أي مالت عن الطريق ونفرت .

(٢) لا تدافنوا : أي مخافة أن لا تدافنوا .

(٣) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الجنة ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه ، (٢١٩٩/٤) .

(٤) جامع الأصول : (١٧٢/١١) .

سَمَاعِ غَيْرِ الرَّسُولِ ﷺ أَصْوَاتِ الْمَعْذِبِينَ

لم يزل بعض الناس يتحدثون عن سماعهم أو رؤيتهم للمعذبين في قبورهم ، ومن هؤلاء ثقات أعلام لا مطعن في دينهم وأمانتهم ، يقول ابن تيمية في ذلك : « قد يكشف لكثير من أبناء زماننا يقظة وناماً ، ويعلمون ذلك ويتحققونه ، وعندنا من ذلك أمور كثيرة » (١) .

وقال في موضع آخر في معرض رده على المكذبين بعذاب القبر : « وإذا عرف أن النائم يكون نائماً وتقعده روحه وتقوم وتمشي ، وتذهب وتتكلم وتفعل أفعالاً وأموراً بباطن بدنه مع روحه ، ويحصل لبدنه وروحه بها نعيم وعذاب ، مع أن جسده مضطجع ، وعينه مغمضة ، وفمه مطبق ، وأعضاؤه ساكنة ، وقد يتحرك لقوة الحركة الداخلة ، وقد يقوم ويمشي ويتكلم ويصيح ، لقوة الأمر في باطنه ، كان هذا مما يعتبر به أمر الميت في قبره ، فإن روحه تقعد ، وتجلس ، وتسال ، وتنعم ، وتعذب ، وتصيح وذلك متصل ببدنه ، مع كونه مضطجعا في قبره ، وقد يقوى ذلك حتى يظهر ذلك في بدنه ، وقد يرى خارجاً من قبره ، والعذاب عليه ، وملائكة العذاب موكلة به ، فيتحرك بدنه ، ويمشي ويخرج من قبره ، وقد سمع غير واحد أصوات المعذبين في قبورهم ، وقد شوهد من يخرج من قبره وهو معذب ، ومن يقعد بدنه أيضاً إذا قوي الأمر ، لكن ليس هذا لازماً في حق كل ميت ، كما أن قعود بدن النائم لما يراه ، ليس لازماً لكل نائم ؛ بل هو بحسب قوة الأمر (٢) » .

(١) مجموع الفتاوي : (٣٧٦/٢٤) .

(٢) مجموع الفتاوي : (٥٢٥/٥) .

المطلب الثاني

صفة نعيم القبر وعذابه

ذكر الرسول ﷺ في حديث البراء بن عازب أن الملائكة تسأل العبد المؤمن في قبره فيحسن الإجابة وعند ذلك « ينادي مناد في السماء : أن صدق عبدي ، فافرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابا إلى الجنة ، قال : فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له في قبره مدّ بصره ، قال : ويأتيه [وفي رواية : يمثل له] رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسرك ، [أبشر برضوان من الله ، وجنات فيها نعيم مقيم] هذا يومك الذي كنت توعده ، فيقول له : [وأنت فبشرك بخير] من أنت ؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير ، فيقول : أنا عمك الصالح [فوالله ما علمتك إلا كنت سريعا في طاعة الله ، بطيئا في معصية الله ، فجزاك الله خيرا] ، ثم يفتح له باب من الجنة ، وباب من النار ، فيقال : هذا منزلك لو عصيت الله ، أبدلك الله به هذا ، فإذا رأى ما في الجنة ، قال : رب عجل قيام الساعة ، كيما أرجع إلى أهلي ومالي ، [فيقال له اسكن] .

وذكر صلوات الله عليه وسلامه أن العبد الكافر^(١) أو الفاجر بعد أن يسيء الإجابة « ينادي منادي في السماء أن كذب ، فافرشوا له من النار ، وافتحوا له بابا إلى النار ، فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه في قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه (وفي رواية : ويمثل له) رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذي كنت توعده ، فيقول : [وأنت فبشرك الله بالشر] ، من أنت ؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر ،

(١) هذا اللفظ ومثله كثير في الأحاديث يرد على ابن عبد البر والسيوطي والحكيم الترمذي ومن ذهب مذهبهم من القائلين بأن عذاب القبر لعصاة المؤمنين دون الكفار .

فيقول : أنا عملك الخبيث ، [فوالله ما علمتك إلا كنت بطيئا عن طاعة الله ،
سريعا إلى معصية الله] ، [فجزاك الله شرًا ، ثم يقبض الله له أعمى أصم أبكم
في يده مرزبة ، لو ضرب بها جبل كان ترابا ، فيضربه حتى يصير بها ترابا ، ثم
يعيده كما كان ، فيضربه ضربة أخرى ، فيصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا
الثقلين ، ثم يفتح له باب من النار ، ويمهد من فرش النار] ، فيقول : رب لا تقم
الساعة « (١) .

وفي حديث أنس أن العبد المؤمن إذا أجاب الإجابة الصادقة في قبره ، « يقال
له : انظر إلى مقعدك من النار ، أبدلك الله به مقعدا من الجنة ، قال النبي ﷺ :
فيراها جميعا ، قال قتادة : وذكر لنا أنه يفسح له في قبره » وذكر في حديث أنس أن
الكافر والمنافق بعد أن يجيب في قبره تلك الإجابة الكاذبة ، يقال له : « لا دريت ،
ولا تليت ، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه ، فيصيح صيحة يسمعها
من يليه إلا الثقلين » أخرجه البخاري ومسلم ولفظ الحديث للبخاري ، ولمسلم :
« إن العبد إذا وضع في قبره ، ثم ذكر نحوه مما تقدم إلى قوله : وذكر لنا : أنه يفسح
فيه سبعين ذراعا ، ويمأ عليه خضرا إلى يوم تبعثون » ، وفي رواية لأبي داود أن
العبد المؤمن بعد أن يسأل ويجيب ، « ينطلق به إلى بيت كان له في النار ، فيقال له :
هذا كان لك ، ولكن الله عصمك ، فأبدلك به بيتا في الجنة ، فيراه ، فيقول :
دعوني حتى أذهب فأبشر أهلي ، فيقال له : اسكن » (٢) .

وهذا الذي أشارت إليه الأحاديث من أن كل إنسان يعرض عليه مقعده بعد
أن يسأل في قبره مستمر طيلة بقائه في القبر ، وقد صرح بذلك الرسول ﷺ ، ففي

(١) حديث صحيح ، سبق تخريجه في ص ٢٠ .

(٢) انظر هذه الروايات في جامع الأصول : (١٧٣/١١) .

الحديث الذي يرويه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، « أن النبي ﷺ قال : إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغدادة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة » (١) .

وفي سنن الترمذي عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ أخبر أن الملكين يقولان للعبد المؤمن بعد أن يجيب الإجابة السديدة : « قد كنا نعلم أنك تقول ذلك ، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين ، ثم ينور له فيه ، ثم يقال له : نم ، فيقول : أرجع إلى أهلي فأخبرهم ، فيقولان : نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك » . وأنها يقولان للمنافق : « قد كنا نعلم أنك تقول ذلك ، فيقال للأرض : التثمي عليه ، فتلتثم عليه ، فتختلف أضلاعه ، فلا يزال معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك » (٢) .

المطلب الثالث

هل يعذب المسلمون في قبورهم

قال القرطبي : « قال أبو محمد عبدالحق : اعلم أن عذاب القبر ليس مختصا بالكافرين ، ولا موقوفا على المنافقين ، بل يشاركهم فيه طائفة من المؤمنين ، وكل على حاله من عمله ، وما استوجبه من خطيئته وزلله » (٣) ، والأدلة على أن المؤمن قد يعذب في قبره بسبب ذنوبه كثيرة ، وسيأتي ذكر طائفة منها في المبحث التالي .

(١) رواه البخاري ، كتاب الجنائز ، باب الميت يعرض عليه مقعده في الغداة والعشى ، فتح الباري : (٢٤٣/٣) ، ورواه مسلم في كتاب الجنة ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار ، (٢١٩٩/٤) حديث رقم (٢٨٦٦) .

(٢) حديث حسن رواه الترمذي في سننه . كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر : (٣٨٣/٣) ، حديث رقم : (١٠٧١) .

(٣) تذكرة القرطبي : ١٤٦ .

المطلب الرابع أسباب عذاب القبر

« الأسباب التي يعذب بها أصحاب القبور على قسمين : مجمل ومفصل ،
أما المجمل فأنهم يعذبون على جهلهم بالله وإضاعتهم لأمره وارتكابهم
معاصيه »^(١) .

أما المفصل فإن النصوص ذكرت منه الكثير ، وسنشير إلى ما اطلعنا على ذكره
في الأحاديث :

١ ، ٢ - عدم الاستار من البول والنميمة :

روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :
« مرّ النبي ﷺ على قبرين ، فقال : إنها ليعذبان وما يعذبان في كبير ، ثم قال :
بلى ، أما أحدهما فكان يسعى بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله ، ثم
قال : ثم أخذ عودا رطبا فكسره باثنتين ، ثم غرز كل واحد منها على قبر ، ثم
قال : لعله يخفف عنهما ، ما لم ييبسا »^(٢) .

وروى النسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت : « دخلت عليّ امرأة من
اليهود ، فقالت : إن عذاب القبر من البول ، فقلت : كذبت ، فقالت : بلى ،
إننا لنقرض منه الجلد والثوب ، فخرج رسول الله ﷺ إلى الصلاة ، وقد ارتفعت
أصواتنا ، فقال : ما هذا ؟ فأخبرته بما قالت فقال : صدقت . قالت : فما صلي

(١) لوامع الأنوار البهية : (١٧/٢) .

(٢) رواه البخاري واللفظ له في كتاب الجنائز ، باب عذاب القبر من الغيبة والبول ، فتح الباري :
(٢٤٢/٣) ، ورواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب الدليل على نجاسة البول ، (٢٤٠/١) ، حديث
رقم (٢٩٢) ، ورواه النسائي : (١٠٦/٤) .

بعد يومئذ إلا قال دبر كل صلاة : رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل أعذني من حرّ النار وعذاب القبر» (١) .

وهذا الذي أشار إليه الحديث من أن بني إسرائيل كانوا يقرضون من البول الجلد والثوب - هو من الدين الذي شرعه الله لهم ، ولذلك لما نهاهم من نهاهم عن فعل ذلك عذب في قبره بسبب نهيه ، ففي حديث عبدالرحمن بن حسنة أن رسول الله ﷺ ، قال : « ألم تعلموا ما لقي صاحب بني إسرائيل ، كانوا إذا أصابهم البول قطعوا ما أصابه البول منهم ، فنهاهم عن ذلك ، فعذب في قبره » (٢) .

وقد أخبر الرسول ﷺ أن عامة عذاب القبر من البول ، فقد روى أنس رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قال : « تنزهوا من البول ، فإن عامة عذاب القبر منه » ، ورواه ابن عباس بلفظ « عامة عذاب القبر من البول فتنزها منه » ورواه أبو هريرة بلفظ « أكثر عذاب القبر من البول » (٣) .

٣ - الغلول :

ومن الذنوب التي يعذب صاحبها في القبر الغلول ، وقد صح في ذلك أكثر من حديث ، فعن أبي هريرة ، قال : أهدى رجل لرسول الله ﷺ غلاما يقال له :

(١) رواه النسائي في سننه ، انظر جامع الأصول : (١٦٧/١١) .

(٢) عزاه في صحيح الجامع (٤١٦/١) إلى أبي داود والترمذي ، وابن ماجه وابن حبان والحاكم .

(٣) وقد خرج الشيخ ناصر في « إرواء الغليل » ، وقال : صحيح ، وعزا رواية أنس إلى الدارقطني ورواية ابن عباس إلى الدارقطني والحاكم والبخاري ورواية أبي هريرة إلى ابن أبي شيبة وابن ماجه والأجري والحاكم وأحمد ، انظر إرواء الغليل : (٣١١/١) ، حديث رقم (٢٨٠) .

مدعم ، فبينما مدعم يحط رحلا لرسول الله ﷺ إذ أصابه سهم عائر^(١) ، فقتله ، فقال الناس . هنيئا له الجنة ، فقال الرسول ﷺ : « كلا ، والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم ، لتشتعل عليه نارا » ، فلما سمع ذلك الناس جاء رجل بشراك أو شراكين إلى النبي ﷺ ، فقال : « شراك من نار أو شراكين من نار » متفق عليه^(٢) .

وعن عبدالله بن عمرو ، قال : كان على ثقل^(٣) النبي ﷺ رجل يقال له كركرة ، فمات ، فقال رسول الله ﷺ : « هو في النار » فذهبوا ينظرون فوجدوا عباءة قد غلها « رواه البخاري^(٤) .

٤ - ٧ - الكذب ، هجر القرآن ، الزنا ، الربا :

أرى الله رسوله ﷺ أنواعا مما يعذب به بعض العصاة ، ففي صحيح البخاري عن سمرة بن جندب قال : « كان النبي ﷺ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال : من رأى منكم الليلة رؤيا ؟ قال : فإن رأى أحد قصها ، فيقول ما شاء الله » .

فسألنا يوماً فقال : هل رأى أحد منكم رؤيا ؟ قلنا : لا قال : لكني رأيت الليلة رجلين أتياي ، فأخذنا بيدي فأخرجاني إلى الأرض المقدسة ، فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده كلوب من حديد - قال بعض أصحابنا عن موسى : كلوب من حديد يدخله في شدقه - حتى يبلغ ففاه ، ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك ،

(١) عائر : لا يدري من رماه .

(٢) مشكاة المصابيح : (٤٠١/٢) .

(٣) النقل : المتاع المحمول على الدابة .

(٤) مشكاة المصابيح : (٤٠٢/٢) .

ويلتئم شدقه هذا ، فيعود فيصنع مثله .

قلت : ما هذا ؟ قال : انطلق . فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على فحاه ، ورجل قائم على رأسه بفهر أو صخرة ، فيشدخ به رأسه ، فإذا ضربه تدهده الحجر ، فانطلق إليه ليأخذه فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو ، فعاد إليه فضر به .

قلت : من هذا ؟ قال : انطلق . فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يتوقد تحته نارا ، فإذا اقترب ارتفعوا حتى كادوا أن يخرجوا ، فإذا خمدت رجعوا فيها ، وفيها رجال ونساء عراة .

فقلت : من هذا ؟ قال : انطلق . فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم ، فيه رجل قائم ، على وسط النهر رجل بين يديه حجارة - قال يزيد ووهب بن جرير عن جرير بن حازم : وعلى شط النهر رجل - فأقبل الرجل الذي في النهر ، فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه فرده حيث كان ، فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر فيرجع كما كان .

فقلت : ما هذا ؟ قال : انطلق . فانطلقنا حتى انتهينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة ، وفي أصلها شيخ وصبيان ، وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها ، فصعدا بي في الشجرة وأدخلاني دارا لم أرقط أحسن منها ، فيها رجال شيوخ وشباب ونساء وصبيان ، ثم أخرجاني منها فصعدا بي الشجرة فأدخلاني داراً هي أحسن وأفضل ، فيها شيوخ وشباب .

قلت : طوفتmani الليلة فأخبراني عما رأيت . قال : نعم . أما الذي رأيته يشق شدقه فكذاب يحدث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق ، فيصنع به ما رأيت إلى يوم القيامة . والذي رأيته يشدخ رأسه فرجل علمه الله القرآن ، فنام عنه

بالليل ولم يعمل فيه بالنهار ، يفعل به إلى يوم القيامة . والذي رأته في الثقب فهم الزناة . والذي رأته في النهر آكلوا الربا . والشيخ في أصل الشجرة إبراهيم عليه السلام والصبيان حوله أولاد الناس . والذي يوقد النار مالك خازن النار . والدار الأولى التي دخلت دار عامة المؤمنين وأما هذه الدار فدار الشهداء . وأنا جبريل ، وهذا ميكائيل . فارفع رأسك . فرفعت رأسي فإذا فوقي مثل السحاب ، قال : ذاك منزلك . قلت : دعاني أدخل منزلي . قال : إنه بقي لك عمر لم تستكمله ، فلو استكملت أتيت منزلك ^(١) .

حبس المدين في قبره بدينه

ومما يضر الميت في قبره ما عليه من دين ، فعن سعد بن الأطول رضي الله عنه : « أن أخاه مات وترك ثلاثمائة درهم ، وترك عيالا ، قال : فأردت أن أنفقها على عياله ، قال : فقال لي نبي الله ﷺ : « إن أخاك محبوس بدينه ، [فاذهب] فاقض عنه ، [فذهبت فقضيت عنه ، ثم جئت] ، قلت : يارسول الله ، قد قضيت عنه إلا دينارين ادعتهما امرأة ، وليست لها بيّنة ، قال : أعطها فإنها محقة ، (وفي رواية صادقة) ^(٢) » .

فقد أخبر الرسول ﷺ أن ذلك الصحابي محبوس بسبب دينه ، ويمكن أن يُفسّر هذا الحبس الحديث الآخر حيث قال الرسول ﷺ : « إنه مأسور بدينه عن الجنة » ، ففي الحديث الذي يرويه سمرة بن جندب « أن النبي ﷺ صلى على

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز . فتح الباري : (٢٥١/٣) .

(٢) قال الشيخ ناصر الدين الألباني في أحكام الجنائز (ص : ١٥) : أخرجه ابن ماجه : (٨٢/٢) ، وأحمد : (١٣٦/٤ ، ٧/٥) ، والبيهقي : (١٤٢/١٠) ، وأحد إسناده صحيح ، والآخر مثل إسناده عند ابن ماجه ، وصححه البوصيري في : (الزوائد) ، وسياق الحديث والرواية الثانية للبيهقي ، وهي الزيادات لأحمد في رواية .

جنازة،) وفي رواية (صلى الصبح) ، فلما انصرف قال : أهنا من آل فلان أحد ؟
 [فسكت القوم ، وكان إذا ابتدأهم بشيء سكتوا] ، فقال ذلك مرارا ، [ثلاث
 لا يجيبه أحد] ، [فقال رجل : هو ذا] ، قال : فقام رجل يمر بإزاره من مؤخر
 الناس ، [فقال له النبي ﷺ : ما منعك في المرتين الأوليين أن تكون أجبتني ؟] أما
 إنني لم أنوّه باسمك إلا لخير ، إن فلانا - لرجل منهم - مأسور بدينه [عن الجنة ، فإن
 شتّم فافدوه ، وإن شتّم فأسلموه إلى عذاب الله] ، فلورأيت أهله ومن يتحرّون
 أمره قاموا فقصوا عنه ، [حتى ما أحد يطلبه بشيء] « (١) .

عذاب الميت بيبكاء الحي

عندما طُعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل عليه صهيب يبكي ،
 يقول : وأخاه ، واصحابه ، فقال عمر رضي الله عنه : يا صهيب أتبكي عليّ وقد
 قال رسول الله ﷺ : « إن الميت يُعذّب ببعض بكاء أهله عليه » (٢) .

وقد أنكرت عائشة رضي الله عنها أن يكون الرسول ﷺ قد قال هذا
 الحديث ، ففي صحيح البخاري أن ابن عباس ذكر لعائشة ما قاله عمر بعد
 وفاته ، فقالت : رحم الله عمر ، والله ما حدّث رسول الله ﷺ أن الله ليُعذب
 المؤمن بيبكاء أهله عليه ، ولكن رسول الله ﷺ قال : إن الله ليزيد الكافر عذابا

(١) قال الشيخ ناصر الدين الألباني في أحكام الجنائز (ص ١٥) : أخرجه أبو داود (٨٤/٢) ، والنسائي
 (٢٣٣/٢) ، والحاكم (٢٥/٢ ، ٢٦) ، والبيهقي (٧٦/٤/٦) والطيالسي في مسنده (رقم ٨٩١ ،
 ٨٩٢) وكذا أحمد (١١/٥ ، ١٣ ، ٢٠) بعضهم عن الشعبي عن سمرة ، وبعضهم أدخل بينهما
 سمعان بن مُشَجِّج ، وهو على الوجه الأول صحيح على شرط الشيخين ، كما قال الحاكم ووافقه
 الذهبي ، وعلى الوجه الثاني صحيح فقط ، وقد ذكر الشيخ هناك من أخرج الروايات والزيادات .
 (٢) الحديث رواه البخاري ، كتاب الجنائز ، باب قول النبي ﷺ : « يعذب الميت ببعض بكاء أهله
 عليه » فتح الباري : (١٥١/٣) ، ورواه مسلم أيضا ، انظر جامع الأصول : (٩٢/١١) .

ببكاء أهله عليه ، حسبكم القرآن ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (١) ، وقد أولت عائشة رضي الله عنها هذا الحديث أكثر من تأويل ، ورد ذلك عنها في الصحاح والسنن (٣) .

وهاهنا أمران : الأول هل قال الرسول ﷺ هذا الحديث ؟ قال القرطبي : « إنكار عائشة ذلك ، وحكمها على الراوي بالتخطئة أو النسيان أو على أنه سمع بعضها ، ولم يسمع بعضها بعيد ، لأن الرواة لهذا المعنى من الصحابة كثيرون ، وهم جازمون ، فلا وجه للنفي مع إمكان حمله على محمل صحيح » (٤) .

الثاني : كيف يعذب ببكاء أهله عليه وليس ذلك من فعله ، والله يقول : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (٥) .

للعلماء في ذلك أجوبة أحسنها ما قاله البخاري في ترجمة الباب الذي وضع الحديث تحته ، قال رحمه الله تعالى : « باب قول النبي ﷺ يعذب الميت ببعض ما ينح عليه إذا كان النوح من سنته » لقول الله تعالى : ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ (٦) ، وقال النبي ﷺ « كلكم راع ومستول عن رعيته » ، فإذا لم يكن من سنته فهو كما قالت عائشة رضي الله عنها ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (٧) (٨) ومن ذهب هذا المذهب الترمذي رحمه الله ، فإنه روى حديث عمر رضي الله عنه بلفظ

(١) سورة فاطر : ١٨ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، انظر فتح الباري : (١٥١/٣) .

(٣) إذا شئت الاطلاع على هذه التأويلات ارجع إلى فتح الباري : (١٥٢/٣) .

(٤) فتح الباري : (١٥٤/٣) .

(٥) سورة فاطر : ١٨ .

(٦) سورة التحريم : ٦ .

(٧) سورة فاطر : ١٨ .

(٨) انظر فتح الباري : (١٥٠/٣) .

« الميت يعذب ببكاء أهله عليه » ثم قال : « قال أبو عيسى (هو الترمذي) :
حديث عمر حديث حسن صحيح ، وقد كره قوم من أهل العلم البكاء على
الميت ، قالوا : الميت يعذب ببكاء أهله عليه ، وذهبوا إلى هذا الحديث ، وقال ابن
المبارك : أرجو إن كان ينههم في حياته ، أن لا يكون عليه من ذلك شيء » (١) .

وهذا الفقه للحديث هو مذهب القرطبي رضي الله عنه ، فإنه قال : « قال
بعض العلماء أو أكثرهم : إنما يعذب الميت ببكاء الحي إذا كان البكاء من سنة الميت
واختياره ، كما قال :

إذا أنا مت فانهيني بما أنا أهله وشقي عليّ الجيب يا ابنة معبد
وكذلك إذا وصى به (٢) .

وقد كان النواح ولطم الخدود وشق الجيوب من شأن أهل الجاهلية ،
« وكانوا يوصون أهاليهم بالبكاء والنوح عليهم ، وإشاعة النعي في الأحياء ، وكان
ذلك مشهورا من مذاهبهم ، وموجودا في أشعارهم كثيرا ، فالميت تلزمه العقوبة في
ذلك لما تقدم إليهم في وقت حياته » كذا قال ابن الأثير (٣) .

وينبغي أن ينبه هنا إلى لفظ البخاري ، فقد جاء فيه : « يعذب ببعض بكاء
أهله عليه » ، ولا يعذب بكل البكاء ، فالبكاء الذي تدمع فيه العين ، ولا شق ،
ولا لطم ، ولا شق معه لا يؤاخذ صاحبه به ، وقد جاءت في ذلك نصوص كثيرة .

وقد تعرض العلامة ابن تيمية للمسألة وضعف مذهب البخاري والقرطبي
وابن عبد البر ومن سلك مسلكهم في فقه الأحاديث التي أخبرت أن الميت يعذب

(١) سنن الترمذي : (٣/٣٢٦) .

(٢) التذكرة ، للقرطبي : (١٠٢) .

(٣) جامع الأصول ، لابن الأثير : (١٠٢) .

بكاء الحبي ، فقد قال رحمه الله تعالى بعد أن ذكر النصوص الواردة في ذلك : « وقد أنكر ذلك طوائف من السلف والخلف ، واعتقدوا أن ذلك من باب تعذيب الإنسان بذنب غيره ، فهو مخالف لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ ^(١) ، ثم تنوع طرقهم في تلك الأحاديث الصحيحة .

فمنهم من غلط الرواة لها ، كعمر بن الخطاب وغيره ، وهذه طريقة عائشة والشافعي وغيرهما . ومنهم من حمل ذلك على ما إذا أوصى به فيعذب على إيصائه ، وهو قول طائفة ، كالزني ، وغيره .

ومنهم من حمل ذلك على ما إذا كان عادتهم ، فيعذب على ترك النبي عن المنكر ، وهو اختيار طائفة منهم جدي أبو البركات ، وكل هذه الأقوال ضعيفة جداً ^(٢) » وقد رد قول الذين ردوا هذه الأحاديث بنوع من التأويل ، فقال : « والأحاديث الصحيحة الصريحة التي يرويها مثل عمر بن الخطاب ، وابنه عبدالله ، وأبو موسى الأشعري وغيرهم ، لا ترد بمثل هذا ، وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لها مثل هذا نظائر ، ترد الحديث بنوع من التأويل والاجتهاد لاعتقادها بطلان معناه ، ولا يكون الأمر كذلك ، ومن تدبر هذا الباب وجد هذا الحديث الصحيح الصريح الذي يرويه الثقة لا يرده أحد بمثل هذا إلا كان مخطئاً ^(٣) » .

ثم بين رحمه الله تعالى أن عائشة وقعت في مثل ما فرت منه ، قال : « وعائشة رضي الله عنها روت عن النبي ﷺ لفظين - وهي الصادقة فيما نقلته - فروت عن

(١) سورة فاطر : ١٨ .

(٢) مجموع الفتاوي (٢٤/٣٧٠) .

(٣) المصدر السابق : (٢٤/٣٧٠) .

النبي ﷺ قوله : « إن الله ليزيد الكافر عذاباً يبكاء أهله عليه » ، وهذا موافق لحديث عمر ، فإنه إذا جاز أن يزيده عذاباً يبكاء أهله ، جاز أن يعذب غيره ابتداءً بيبكاء أهله ، ولهذا رد الشافعي في «مختلف الحديث» هذا الحديث نظراً إلى المعنى ، وقال الأشبه روايتها الأخرى : « إنهم يبكون عليه ، وإنه ليعذب في قبره » (١) .

ورد قول الذين ظنوا أن الحديث يفيد معاقبة الإنسان بذنب غيره ، فقال : « والذين أقرؤا هذا الحديث على مقتضاه ، ظن بعضهم أن هذا من باب عقوبة الإنسان بذنب غيره ، وأن الله يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، واعتقد هؤلاء أن الإنسان يعاقب بذنب غيره ، فجازوا أن يدخل أولاد الكفار النار بذنوب آبائهم » (٢) ، وبعد أن أطال النفس في هذه المسألة : مسألة دخول أولاد الكفار النار بذنوب آبائهم ، وأن هذا ليس بصواب من القول ، وأن الحق أن الله لا يعذب إلا من عصاه ، وأن الذين لم يبتلوا يمتحنون في عرصات القيامة ، قال : « وأما تعذيب الميت : فهو لم يقل : إن الميت يعاقب بيبكاء أهله عليه ، بل قال : « يعذب » ، والعذاب أعمُّ من العقاب ، فإن العذاب هو الألم ، وليس كل من تألم بسبب كان ذلك عقاباً له على ذلك السبب ، فإن النبي ﷺ قال : « السفر قطعة من العذاب ، يمنع أحدهم طعامه وشرابه » ، فسمى السفر عذاباً ، وليس هو عقاباً .

والإنسان يعذب بالأمور المكروهة التي يشعر بها ، مثل الأصوات الهائلة ، والأرواح الخبيثة ، والصور القبيحة ، فهو يتعذب بسماع هذا وشم هذا ، ورؤية هذا ، ولم يكن ذلك عملاً له عوقب عليه ، فكيف ينكر أن يعذب الميت بالنياحة ، وإن لم تكن النياحة عملاً له ، يعاقب عليه ؟

(١) مجموع الفتاوى : (٣٧١/٢٤) .

(٢) المصدر السابق .

والإنسان في قبره يعذب بكلام بعض الناس ، ويتألم برؤية بعضهم ، وبسماع كلامه ، ولهذا أفق القاضي أبو يعلى بأن الموت إذا عمل عندهم المعاصي فإنهم يتألمون بها ، كما جاءت بذلك الآثار ، فتعذبهم بعمل المعاصي عند قبورهم كتعذيبهم بنياحة من ينوح عليهم ، ثم النياحة سبب العذاب^(١) .

وهذا الفقه الذي صار إليه الشيخ العلامة جاءت بعض الأحاديث دالة عليه ، فعن النعمان بن بشير ، قال : « أغمى على عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ، فجعلت أخته عمرة تبكي : واجبله ، واكذا ، واكذا ، تعدد عليه ، فقال حين أفاق : ما قلت شيئاً إلا قيل لي ، أنت كذلك ؟ ! فلما مات لم تبك عليه »^(٢) ؛ بل إن هذا المعنى ورد صريحاً في الحديث الذي يرويه أبو موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : « ما من ميت يموت ، فيقوم باكيه ، فيقول : واجبله ! واسيداه ! أو نحو ذلك ، إلا وكل به ملكان يلهزانه : أهكذا كنت » رواه الترمذي . وقال هذا حديث حسن غريب^(٣) ، وقال الحافظ في التلخيص بعد سياقه لهذا الحديث : « ورواه الحاكم وصححه ، وشاهده في الصحيح عن النعمان بن بشير^(٤) » .

وينبغي أن ينبه هنا أنه ليس كل ميت يباح عليه يعذب بالنياح عليه ، فقد يندفع حكم السبب بما يعارضه - كما يقول ابن تيمية - كما يكون في بعض الناس من القوة ما يدفع ضرر الأصوات الهائلة ، والأرواح والصور الخبيثة . ثم ذكر أن أحاديث الوعيد يذكر فيها السبب ، وقد يتخلف موجه لموانع تدفع ذلك ، إما بتوبة مقبولة ، وإما بحسنات ماحية ، وإما بمصائب مكفرة ، وإما بشفاعة شفيع

(١) مجموع الفتاوى : (٣٧٤/٢٤) .

(٢) رواه البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة مؤتة .

(٣) سنن الترمذي ، كتاب الجنائز ، باب ماجاء في كراهية البكاء على الميت ، (٣/٣٢٦) . حديث رقم : (١٠٠٣) .

(٤) تلخيص الحبير لابن حجر : ١٤٠/٢ ، حديث رقم (٨٠٦) .

مطاع ، وإما بفضل الله ورحمته ومغفرته . وبين في الختام أن ما يصيب الميت المؤمن من عذاب في قبره بما نوح عليه يكفر الله به عن سيئاته^(١) .

المطلب الخامس

المنجيات من فتنة القبر وعذابه

الذي ينجي المرء من عذاب القبر أن يكون مستعداً للموت ، مشمراً له ، حتى إذا فاجأه الموت لم يعرض أصبع الندم ، ومن الاستعداد للموت الإسراع في التوبة ، وقضاء الحقوق ، والإكثار من الأعمال الصالحة ، فإن الإيمان والصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد وبر الوالدين وصلة الأرحام وذكر الله عز وجل وغيرها من صالح الأعمال تحفظ العبد المؤمن ، وبها يجعل الله له من كل ضيق فرجاً ومن كل همٍّ مخرجاً .

وقد حدثنا الرسول ﷺ أن الأعمال الصالحة تحرس الإنسان في قبره ، يقول ابن تيمية : « في الحديث المشهور حديث محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، رواه أبو حاتم في صحيحه ، وقد رواه الأئمة قال : « إن الميت ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه ، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه ، وكان الصيام عن يمينه ، وكانت الزكاة عن يساره ، وكان فعل الخيرات من الصدق والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجله ، فيؤتى من عند رأسه ، فتقول الصلاة : ما قبلي مدخل ، ثم يؤتى عن يمينه ، فيقول الصيام : ما قبلي مدخل ، ثم يؤتى عن يساره ، فتقول الزكاة : ما قبلي مدخل ، ثم يؤتى من قبل رجله ، فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى

(١) مجموع الفتاوى : (٤/٣٧٥) .

الناس : ما قبلي مدخل ، فيقال له : اجلس ، فيجلس ، قد مثلت له الشمس وقد دنت للغروب ، فيقال له : ما هذا الرجل الذي كان فيكم ، ما تقول فيه ؟ فيقول : دعوني ، حتى أصلي ، فيقولون : إنك ستفعل ، أخبرنا عما نسألك عنه ، فقال : عمّ تسألوني ؟ فيقولون : ما تقول في هذا الرجل الذي كان فيكم ، ما تشهد به ؟ فيقول : أشهد أنه رسول الله ، وأنه جاء بالحق من عند الله ، فيقال على ذلك حيين ، وعلى ذلك مت ، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله تعالى ، ثم يفتح له باب من أبواب الجنة ، فيقال له : ذلك مقعدك منها ، وما أعد الله لك فيها ، فيزداد غبطة وسرورا ، ثم يفتح له باب من أبواب النار ، فيقال : ذلك مقعدك منها ، وما أعد الله لك فيها ، [لو عصيت الله] ، فيزداد غبطة وسرورا ؛ ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا ، وينور له فيه ، ويعاد جسده كما بدىء ، وتجعل نسمة في نسمة الطيب ، وهي طير تعلق في شجر الجنة .

وفي لفظ : « وهو طير يعلق في شجر الجنة » قال أبو هريرة : ﴿ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾^(١) ، وفي لفظ : « ثم يعاد الجسد إلى ما بدىء منه » .

الاستعاذة بالله من فتنة القبر وعذاب القبر

لما كانت فتنة القبر وعذاب القبر من الأهوال الكبار ، والشدائد العظيمة فإن الرسول ﷺ كان يستعيذ من ذلك في صلاته وفي غير الصلاة ، وكان يأمر أصحابه بذلك .

(١) سورة إبراهيم : ٢٧ .

ففي حديث عائشة التي ذكرت فيه أمر اليهودية التي قالت لها : أعاذك الله من عذاب القبر ، فسألت الرسول ﷺ عن عذاب القبر ؟ فقال : نعم ، عذاب القبر ، قالت فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر ، زاد غندر : « عذاب القبر حق » (١) .

وعن أنس أن الرسول ﷺ كان يدعو فيقول : « اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل والهرم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات » (٢) .

وعن عائشة أن الرسول ﷺ كان يقول : « اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم والمأثم والمغرم ، ومن فتنة القبر ، وعذاب القبر . . » (٣) .

وكان الرسول ﷺ يقول لأصحابه : « تعوذوا بالله من عذاب القبر » فيقولون : « نعوذ بالله من عذاب القبر » (٤) .

وكان يقول لهم : « استجبروا بالله من عذاب القبر ، فإن عذاب القبر حق » (٥) وكان يأمرهم أن يستعيذوا من أربع فيقول : « استعيذوا بالله من عذاب القبر ، استعيذوا بالله من جهنم ، استعيذوا بالله من فتنة المسيح الدجال ، استعيذوا بالله من فتنة المحيا والممات » (٦)

-
- (١) رواه البخاري في كتاب الجنائز ، والسياق له ، باب عذاب القبر ، فتح الباري : (٢٣٢/١٣) ورواه مسلم ، كتاب المساجد ، باب استحباب التعوذ من عذاب القبر : (٤١٠/١) .
- (٢) قال الشيخ ناصر في صحيح الجامع (٤٠٦/١) رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم .
- (٣) عزاه في صحيح الجامع (٤٠٧/١) إلى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه .
- (٤) رواه مسلم ، كتاب الجنة ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه : (٢١٩٩/٤)
- (٥) رواه الطبراني بإسناد صحيح ، انظر صحيح الجامع : (٣١٧/١)
- (٦) عزاه في صحيح الجامع (٣٢٠/١) إلى الترمذي والنسائي .

وكان يأمرهم بالاستعاذة في الصلاة بعد التشهد من عذاب القبر ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع . يقول : اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شر فتنة المسيح الدجال » (١) .

وعن ابن عباس أن الرسول كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن « اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات » (٢) .

المطلب السادس

الذين يعصمون من فتنة القبر وعذابه

بعض المؤمنين من الذين قاموا بأعمال جليلة ، أو أصيبوا بمصائب كبيرة يأمنون فتنة القبر وعذابه ، فمن هؤلاء :

١ - الشهيد : فقد روى المقدم بن معدي كرب ، قال : قال رسول الله ﷺ : « للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له في أول دفعه ، ويرى مقعده في الجنة ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفرع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ؛ الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج ثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع في سبعين من أقربائه » رواه الترمذي وابن ماجه (٣) .

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب المساجد ، باب ما يستعاذ منه في الصلاة ، (٤١٢/١) حديث رقم : (٥٨٨) .

(٢) رواه مسلم ، كتاب المساجد ، باب ما يستعاذ به في الصلاة : (٤١٢/١) ، حديث رقم (٥٩٠) .

(٣) مشكاة المصابيح : (٣٥٨/٢) ، وإسناده صحيح كما قال محقق المشكاة الشيخ ناصر الدين الألباني .

وروى النسائي في سننه عن راشد بن سعد عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رجلا قال : يا رسول الله ! ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد ؟ قال كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة « (١) .

٢ - الذي مات مرابطا^(٢) في سبيل الله ، فقد روى فضالة بن عبيد ، عن رسول الله ﷺ ، قال : « كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطا في سبيل الله ؟ فإنه ينمي له عمله يوم القيامة ، ويأمن فتنة القبر » رواه الترمذي وأبو داود^(٣) .

٣ - الذي يموت يوم الجمعة ، ففي الحديث عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ ، قال : « ما من مسلم يموت يوم الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر » رواه أحمد والترمذي ، والحديث صحيح بمجموع طرقه أو حسن^(٤) .

٤ - الذي يموت بداء البطن ، وقد ثبت في حديث يرويه عبدالله بن يسار ، قال : « كنت جالسا وسليمان بن صرد وخالد بن عرفطه ، فذكروا أن رجلا توفي ؛ مات ببطنه ، فإذا هما يشتهيان أن يكونا شهدا جنازته ، فقال أحدهما للآخر : ألم يقل رسول الله ﷺ : من يقتله بطنه فلن يعذب في قبره ؟ فقال الآخر : بلى ، وفي رواية : صدقت^(٥) .

(١) وسنده صحيح ، انظر أحكام الجنائز للشيخ ناصر الدين الألباني : (٣٦) وصحيح الجامع : (١٦٤/٤) .

(٢) الرباط : هو الملازمة في سبيل الله مأخوذة من ربط الخيل ، ثم سمي كل ملازم لفرمن ثغور المسلمين مرابطا فارسا كان أو راجلا ، واللفظة مأخوذة من الرباط .

(٣) مشكاة المصابيح : (٣٥٥/٢) ، وإسناده صحيح كما قال محقق المشكاة .

(٤) رواه أحمد ، والترمذي ، والحديث بمجموع طرقه صحيح أو حسن ، أحكام الجنائز (٣٥) .

(٥) قال الشيخ ناصر في أحكام الجنائز : أخرجه النسائي : والترمذي وحسنه ، وابن حبان في صحيحه ، والطيالسي ، وأحمد ، وسنده صحيح ، (أحكام الجنائز ص ٣٨) .

المَبْحَثُ الخَامِسُ

عِظَةُ المَوْتِ

المطلب الأول

الموت أعظم واعظ

سقنا إليك طرفا من النصوص التي تحدث عن الموت وسكراته ، والقبر وأهواله ، والعاقل من اعتبر ، فإن الموت أكبر واعظ ، وقد قيل لبعض الزهاد : ما أبلغ العظاظ ؟ قال : النظر إلى الأموات^(١) ، وقد أحسن القرطبي في وصف الموت حيث يقول : « اعلم أن الموت هو الخطب الأفظع ، والأمر الأشنع ، والكأس الذي طعمها أكره وأبشع ، وأنه الأهدم للذات ، والأقطع للراحات ، والأجلب للكريهات ، فإن أمرا يقطع أوصالك ، ويفرق أعضائك ، ويهدم أركانك ، هو الأمر الفظيع ، والخطب الجسيم ، وإن يومه هو اليوم العظيم »^(٢) .

المطلب الثاني

التفكر في الموت

كما أن الحياة آية من آيات الله فالموت كذلك آية أخرى تضاد الحياة ، ولكنها لا تقل عنها عجا ، ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَانًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾^(٣)

(١) التذكرة للقرطبي : ٩٩ .

(٢) التذكرة للقرطبي : ٢٤ .

(٣) سورة البقرة : ٢٨ .

والتفكر في هذه الآية تفكر في خلق من خلق الله وعجائبه الدال على عظيم
قدرة الله ، وعجيب أمره ، يروى أن أعرابيا كان يسير على جبل له ، فخر ميتا ،
فنزل الأعرابي عنه ، وجعل يطوف به ، ويتفكر فيه ، ويقول : مالك لا تقوم ؟
مالك لا تنبعث ؟

هذه أعضاؤك كاملة ، وجوارحك سالمة . ما شأنك ؟ ما الذي كان يحملك ؟ ما
الذي كان يبعثك ؟ ما الذي صرعتك ؟ ما الذي عن الحركة منعك ؟

ثم انصرف متفكرا في شأنه ، متعجبا من أمره^(١) .

وأنشد في بعض الشجعان مات حتف أنفه^(٢) :

جاءته من قبل المنون إشارة
ورمى بمحكّم درعه وبرمحه
لا يستجيب لصارخ إن يدعه
ذهبت بسالته ومرّ مراره
ياويحه من فارس ما باله
هذي يداه وهذه أعضاؤه
هيها ما جبل الردى محتاجه
هي ويحكّم أمر الإله وحكمه
فهوى صريعا لليدين وللقم
وامتد ملقى كالفتيق الأعظم
أبدا ولا يرجى لخطب معظم
لما رأى جبل المنية يرتقى
ذهبت مرارته ولما يُكَلِّم
ما منه عضو غدا بمثلهم
للمشرفي ولا اللسان اللهزم
والله يقضي بالقضاء المحكّم

(١) التذكرة للقرطبي : ص ٤

(٢) التذكرة للقرطبي : ص ٥

المطلب الثالث

نماذج من عظات الواعظين

وعظ الله رسوله بالموت فقال : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ (١) وفي الحديث الذي يرويه الطبراني في الأوسط ، وأبو نعيم في الحلية ، والحاكم في مستدرکه ، وغيرهم عن علي قال : قال رسول الله ﷺ : « أتاني جبريل ، فقال : يا محمد ، عش ما شئت ، فإنك ميت ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزي به ، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل ، وعزه استغناؤه عن الناس » (٢) .

وقد سقنا كثيرا من النصوص التي وعظنا الله ورسوله فيها بالموت ، وقد كان هذا دأب الصالحين يعظون أنفسهم بالموت ، ويعظون الناس به ، يقول علي ابن أبي طالب رضي الله عنه : « ارتحلت الدنيا مدبرة ، وارتحلت الآخرة مقبلة ، ولكل واحدة بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل » رواه البخاري في ترجمة باب : الأمل وطوله (٣) .

ومن عظات العلماء ماجاء في تذكرة القرطبي : « تفكر يا مغرور في الموت وسكرته ، وصعوبة كأسه ومرارته ، فيا للموت من وعد ما أصدقه ، ومن حاكم ما أعدله ، كفى بالموت مفزعا للقلوب ، ومبكيا للعيون ، ومفرقا للجماعات ، وهادما للذات ، وقاطعا للأمنيات .

(١) سورة الزمر : ٣٠

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، (٢/٥٠٥) ، ورقم الحديث : (٨٣١)

(٣) مشكاة المصابيح : (٢/٦٥٩) ، ورقم الحديث (٥٢١٥) .

فهل تفكرت يا ابن آدم في يوم مصرعك ، وانتقالك من موضعك ، إذا نقلت من سعة إلى ضيق ، وخانك الصاحب والرفيق ، وهجرك الأخ والصديق ، وأخذت من فراشك وغطائك إلى غرر ، وغطوك من بعد لين لحافها بتراب ومدر ، فيا جامع المال ، والمجتهد في البنيان ، ليس لك من مالك والله إلا الأكفان ، بل هي للخراب والذهاب ، وجسمك للتراث والمثاب .

فأين الذي جمعته من المال ؟ فهل أنقذك من الأهوال ، كلا بل تركته لمن لا يحمذك ، وقدمت بأوزارك على من لا يعذرک ﴿١﴾ .

ونقل القرطبي رحمه الله عن يزيد الرقاشي أنه كان يقول لنفسه : « ويحك يا يزيد من ذا يصلي عنك بعد الموت ؟ من ذا يصوم عنك بعد الموت ، من ذا يرضي عنك ربك بعد الموت ؟

ثم يقول : « يأياها الناس ، ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقبي حياتكم ؟ مَنْ القبر طالبه ، والقبر بيته ، والتراب فراشه ، والدود أنيسه ، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر ، كيف يكون حاله ؟ ﴿٢﴾ .

وقال القرطبي رحمه الله في موضع آخر : « مثَّل نفسك يا مغرور وقد حلت بك السكرات ، ونزل بك الأنين والغمرات ، فمن قائل يقول : إن فلانا قد أوصى ، وماله قد أحصى ، ومن قائل يقول : إن فلانا ثقل لسانه ، فلا يعرف جيرانه ، ولا يكلم إخوانه ، فكأنى أنظر إليك تسمع الخطاب ، ولا تقدر على رد الجواب . فَخَيَّلَ لنفسك ، يا ابن آدم إذا أخذت لفراشك إلى لوح مغسلك ، فغسلك الغاسل ، وألبست الأكفان ، وأوحش منك الأهل والجيران ، وبكت

(١) التذكرة : ص ٩

(٢) التذكرة : ص ٩

عليك الأصحاب والإخوان ، وقال الغاسل : أين زوجة فلان تحالله ، وأين
اليتامى تركمكم أبوكم فما ترونه بعد هذا اليوم أبدا ، وانشدوا :

ألا أيها المغرور مالك تلعب تؤمل آمالا وموتك أقرب
وتعلم أن الحرص بحر مبعث سفينته الدنيا فإياك تعطب
وتعلم أن الموت ينقض مسرعا عليك يقينا طعمه ليس يعذب
كانك توصي واليتامى تراهم وأمهم الثكلى تنوح وتندب
تغص بحزن ثم تلطم وجهها يراها رجال بعدما هي تحجب
وأقبل بالأكفان نحوك قاصد ويحشى عليك الترب والعين تسكب^(١)

ومن عظات الصحابي الجليل أبي الدرداء قوله : « أضحكني ثلاث ،
وأبكاني ثلاث : أضحكني مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل ليس بمغفول عنه ،
وضاحك بمليء فيه ، وهو لا يدري أرضى الله أم أسخطه .

وأبكاني فراق الأحبة محمد ﷺ وحزبه ، وهول المطلع عند غمرات الموت ،
والوقوف بين يدي الله ، يوم تبدو السريرة علانية ، ثم لا يدري إلى الجنة أو إلى
النار »^(٢) .

وقال أبو الدرداء أو أبو ذر : « تلدون للموت ، وتعمرون للخراب ،
وتحرصون على ما يفنى ، وتذرون ما يبقى »^(٣) .

وقال القرطبي في تذكرته واعظا ناصحا :
« يا هذا ، أين الذي جمعته من الأموال ، وأعدده للشدائد والأهوال ، لقد

(١) التذكرة : ص ٢١

(٢) التذكرة : ص ٨٧

(٣) كتاب الزهد والرفائق ، لابن المبارك : ص ٨٨

أصبحت كفك منه عند الموت خالية صفرا ، وبدلت بعد غناك وعزك ذلا وفقرا ،
فكيف أصبحت يا رهين أوزاره ، ويا من سلب من أهله ودياره ؟

ما كان أخفى عليك سبيل الرشاد ، وأقل اهتمامك لحمل الزاد إلى سفرك
البعيد ، وموقفك الصعب الشديد ، أو ما علمت يا مغرور أن لا بدّ من الارتحال إلى
يوم شديد الأهوال ، وليس ينفك ثمّ قيل ولا قال ، بل يعد عليك بين يدي الملك
الديان ما بطشت اليدان ومشت القدمان ، ونطق به اللسان ، وعملت الجوارح
والأركان ، فإن رحمك الله فإلى الجنة ، وإن كانت الأخرى فإلى النيران .

يا غافلا عن هذه الأحوال إلى كم هذه الغفلة والتوان ؟ أم تحسب أن الأمر
صغيرا ، وتزعم أن الخطب يسيرا ؟ وتظن أن سينفك حالك إذا آن ارتحالك ، أو
ينفذك مالك حين توبقك أعمالك ، أو يغني عنك ندمك إذا زلت بك قدمك ، أو
يعطف عليك معشرك حين يضمك محشرك ، كلا والله ساء ما تتوهم ، ولا بدّ أن
ستعلم لا بالكفاف تقنع ، ولا من الحرام تشيع ولا للعظمت تسمع ، ولا بالوعيد
ترتدع ، دأبك أن تتقلب مع الأهواء ، وتخبط خبط العشواء ، يعجبك التكاثر بما
لديك ، ولا تذكر ما بين يديك . يا نائما في غفلة ، وفي خبطة يقظان ، إلى كم هذه
الغفلة والتوان ، أتزعم أن ستترك سدى ، وأن لا تحاسب غدا ، أم تحسب أن الموت
يقبل الرشا ؟ أم تميز بين الأسد والرشا ؟

كلا والله ، لن يدفع عنك الموت مال ولا بنون ، ولا ينفع أهل القبول إلا
العمل المبرور ، فطوبى لمن سمع ووعى ، وحقق ما ادعى ، ونهى النفس عن
الهوى ، وعلم أن الفائز من ارعوى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه
سوف يرى ، فانتبه من هذه الرقدة ، واجعل العمل الصالح لك عدة ، ولا تتمنّ
منازل الأبرار وأنت مقيم على الأوزار ، عامل بعمل الفجار ، وراقب الله في
الخلوات ، ولا يغرنك الأمل ، فتزهّد عن العمل . . وأنشدوا :

تزود من معاشك للمعاد وقم لله واعمل خير زاد
ولا تجمع من الدنيا كثيرا فإن المال يجمع للنفاد
أترضى أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد
وقال آخر :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون مثله وأنت لم ترصد كما كان أرسدا^(١)

المطلب الرابع

نماذج من عظات الشعراء

وقد أكثر الشعراء من ذكر الموت والوعظ به فمن ذلك قول الشاعر :

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويفنى المال والولد
لم تغن عن هرمرز يوما خزائنه والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجري الرياح له والإنس والجن فيما بينها ترد
أين الملوك التي كانت لعزتها من كل أوب إليها وافد يقد
حوض هنالك مورود بلا كذب لابد من ورده يوما كما وردوا
وقال الآخر :

مشيناها خطأ كتبت علينا ومن كتبت عليه خطأ مشاها
وأرزاق لنا متفرقات فمن لم تأته منا أتاها
ومن كتبت منيته بأرض فليس يموت في أرض سواها

(١) تذكرة القرطبي : ٩١ .

وقال آخر :

وإذا وليت قوما ليلة فاعلم بأنك بعدها مسئول
وإذا حملت إلى القبور جنازة فاعلم بأنك بعدها محمول

وقال آخر :

تزود من الدنيا فإنك لا تدري فكم من عروس زينوها لزوجها
وكم من صغار يرجى طول عمرهم وكم من سليم مات من غير علة
وكم من فتى يمسي ويصبح لاهيا وكم من ساكن عند الصباح بقصره
فكن مخلصا واعمل الخير دائما وداوم على تقوى الإله فإنها

وقال الآخر :

هب الدنيا تساق إليك عفوا وما دنياك إلا مثل فيء
أليس مصير ذاك إلى انتقال أظلك ثم آذن بالزوال

وقال آخر :

يا مقيما قد حان منه رحيل إن للموت سكرة فارتقبها
كم تواني حتى تصير رهينا وتذكر يوما تحاسب فيه
ليس من ساعة من الدهر إلا كل يوم ترميك بسهم
بعد ذاك الرحيل يوم عصيب لا يداويك إن أتتك طبيب
ثم تأتيك دعوة فتجيب إن من يذكر الممات ينيب
للمنايا عليك رقيب إن تخطى يوما فسوف تصيب

وقال آخر :

الموت في كل يوم ينشر الكفنا ونحن في غفلة عما يراد بنا
لا تطمئن إلى الدنيا وبهجتها وإن توشحت من أثوابها الحسننا
أين الأحبة والجيران ما فعلوا أين الذين همو كانوا لنا سكتنا
سقامهم الموت كأسا غير صافية فصيرتهم لأطباق الثرى رهنا

وقال آخر :

قدم لنفسك توبة مرجوة قبل الممات وقبل حبس الألسن
بادر بها غلق النفوس فإنها ذخر وغنم للمنيب المحسن

المطلب الخامس

أثر تذكر الموت في إصلاح النفوس

إن لتذكر الموت أثر كبير في إصلاح النفوس وتهذيبها ، ذلك أن النفوس تؤثر الدنيا وملذاتها ، وتطمع في البقاء المديد في هذه الحياة ، وقد تهفو إلى الذنوب والمعاصي ، وقد تقصر في الطاعات ، فإذا كان الموت دائما على بال العبد ، فإنه يصغر الدنيا في عينه ، ويجعله يسعى في إصلاح نفسه وتقويم المعوج من أمره ، فقد روى البيهقي في شعب الإيمان ، وابن حبان في صحيحه والبخاري في مسنده بإسناد حسن عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « أكثروا ذكر هادم اللذات : الموت ، فإنه لم يذكره في ضيق من العيش إلا وسعه عليه ، ولا ذكره في سعة إلا ضيقها » (١) .

(١) صحيح الجامع الصغير : (٣٨٨/١) ، ورقم الحديث : (١٢٢٢)

ويذكر ابن المبارك أن صالحا المرى كان يقول: « إن ذكر الموت إذا فارقتني ساعة فسد على قلبي » (١) .

وقال الدقاق : « من أكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة : تعجيل التوبة ، وقناعة القلب ، ونشاط العبادة ، ومن نسى الموت عوجل بثلاثة : تسويف التوبة ، وترك الرضى بالكفاف ، والتكاسل في العبادة » (٢) .

وقال القرطبي : « اعلم أن ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج عن هذه الدار الفانية ، والتوجه في كل لحظة إلى الدار الآخرة الباقية » (٣) ويروى أن امرأة شكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة في قلبها ، فقالت لها : أكثر من ذكر الموت يرق قلبك ، ففعلت ذلك فرق قلبها » (٤) .

وقال القرطبي : قال العلماء : تذكر الموت يردع عن المعاصي ، ويلين القلب القاسي ، ويذهب الفرح بالدنيا ويهون المصائب (٥) .

وقال القرطبي أيضا : قال العلماء - رحمهم الله - ليس للقلوب أنفع من زيارة القبور ، وخاصة إن كانت قاسية ، فعلى أصحابها أن يعالجوها بثلاثة أمور : أحدها : الإقلاع عما هي عليه بحضور مجالس العلم بالوعظ والتذكير والتخويف والترغيب وأخبار الصالحين ، فإن ذلك مما يلين القلوب .

الثاني : ذكر الموت ، فيكثر من ذكر هادم اللذات ، ومفرق الجماعات ، وميتم البنين والبنات .

(١) الزهد والرفائق ، لابن المبارك : ص (٨٨)

(٢) تذكرة القرطبي : ص ٩

(٣) تذكرة القرطبي : ص ٨

(٤) التذكرة : ص ١٢

(٥) التذكرة : ص ١٢

الثالث : مشاهدة المحتضرين ، فإن النظر إلى الميت ومشاهدة سكراته ونزعاته ، وتأمل صورته بعد مماته ، مما يقطع عن النفوس لذاتها ، ويطرد عن القلوب مسراتها ، ويمسح الأجفان من النوم ، ، والأبدان من الراحة ، ويبعث على العمل ، ويزيد في الاجتهاد والتعب^(١) .

وذكر عن الحسن البصري أنه دخل على مريض يعوده ، فوجده في سكرات الموت ، فنظر إلى كربه ، وشدة ما نزل به ، فرجع إلى أهله بغير اللون الذي خرج به من عندهم ، فقالوا له : الطعام يرحمكم الله ، فقال : يا أهلاه ، عليكم بطعامكم وشرابكم ، فوالله رأيت مصرعا لا أزال أعمل له حتى ألقاه .^(٢)

وقال أبوالدرداء : « من أكثر ذكر الموت قل فرحه ، وقل حسده »^(٣) .

(١) تذكرة القرطبي : ص ١٢

(٢) تذكرة القرطبي : ص ١٢

(٣) كتاب الزهد لابن المبارك : انظر آخر الكتاب : زوائد كتاب الزهد ، راويه نعيم بن حماد : ص ٣٧

الفصل الخامس

الروح والنفس

المبحث الأول

تعريف وبيان

لابد للباحث في أمر الإنسان بعد موته من إعطاء فكرة عن الروح التي تنعم أو تعذب بعد موتها ، ما هي ؟ وهل لها كيفية تعلم ؟ وهل هي جزء من البدن ، أم شيء آخر غير البدن ؟ فإن كانت غيره فأين مسكنها فيه ؟ وهل هي مخلوقة ؟ وهل هي واحدة في الإنسان أم متعددة ؟ وهل تموت الأرواح ، وكيف موتها ؟ وأين مستقرها في البرزخ ، وهل تعلم الأرواح شيئا عما يجري في الدنيا من البرزخ ؟

يقول ابن تيمية : « والروح المدبرة للبدن التي تفارقه بالموت هي الروح المنفوخة فيه ، وهي النفس التي تفارقه بالموت »^(١) ، وقد أخطأ الذين فرقوا بين الروح والنفس واعتقدوا أنها أمران مختلفان ، ومن تأمل فيما سقناه في بحثنا من نصوص علم أن النفس هي التي تقبضها الملائكة ، وتصعد بها إلى السماء ، وتعود بها إلى الجسد ، وتسأل ، وتنعم وتعذب ، وهي الروح أيضا التي إذا خرجت من الجسد تبعها البصر كما ثبت في الأحاديث .

(١) رسالة العقل والروح ، مجموعة الرسائل المنيرية : ٣٦/٢ ، وانظر شرح العقيدة الطحاوية :

وهذا المخلوق الذي تكون به الحياة ، وتفقد الحياة بفقده يسمى روحا ونفسا ، ولا يمنع هذا أن تطلق كل من الروح والنفس اطلاقات أخرى ، يقول ابن تيمية : « لفظ الروح والنفس يعبر بهما عن عدة معان : فيراد بالروح الهواء الخارج من البدن والهواء الداخل فيه ، ويراد بالروح البخار الخارج من تجويف القلب من سويده الساري في العروق ، وهو الذي تسميه الأطباء الروح ، ويسمى الروح الحيواني ، فهذان المعنيان غير الروح التي تفارق بالموت التي هي النفس ، ويراد بنفس الشيء ذاته وعينه ، وقد يراد بلفظ النفس الدم الذي يكون في الحيوان ، كقول الفقهاء : « ماله نفس سائلة ، وما ليس له نفس سائلة » فهذان المعنيان بالنفس ليسا هما معنى الروح »^(١) .

وتطلق الروح أيضا على جبرائيل ﴿ تَزَلُّ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾^(٢) ، وتطلق على القرآن ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ﴾^(٣) .

ويلاحظ شارح الطحاوية أن الروح والنفس وإن أطلقا على تلك اللطيفة الربانية ، إلا أن « غالب ما يسمى نفسا إذا كانت الروح متصلة بالبدن ، وأما إذا أخذت مجردة فتسمية الروح أغلب عليها »^(٤) .

ويقول ابن تيمية في هذا : « لكن تسمى نفسا باعتبار تدبيره للبدن ، وتسمى روحا باعتبار لطفه ، ولهذا يسمى الريح روحا ، وقال النبي ﷺ : « الريح من روح الله »^(٥) أي من الروح التي خلقها الله »^(٦) .

(١) المصدر السابق : (٣٩/٢)

(٢) سورة الشعراء : (١٩٣)

(٣) سورة الشوري : (٥٢) .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية : ص (٤٤٤)

(٥) رواه البخاري في الأدب المفرد ، وأبو داود والحاكم .

(٦) رسالة العقل والروح ، مجموعة الرسائل المنيرية : (٣٧/٢)

المَبْحَثُ الثَّانِي

هل للروح كيفية تعالَم؟

لما كانت الروح مخلوقة من جنس لا نظيره في عالم الموجودات فإننا لا نستطيع أن نعرف صفاتها ، فقد عرفنا الله أنها تصعد وتهبط ، وتسمع وتبصر وتتكلم إلى غير ذلك ، إلا أنَّ هذه الصفات مخالفة لصفات الأجسام المعروفة ، فليس صعودها وهبوطها وسموعها وبصرها وقيامها وقعودها من جنس ما نعرفه ونعلمه ، فقد أخبرنا الرسول ﷺ أن الروح يصعد بها إلى السموات العلى ، ثم تعاد إلى القبر ، ساعة من الزمن ، وقد أخبرنا أنها تنعم أو تعذب في القبر ، ولا شك أن هذا النعيم على نحو مخالف لما نعلمه ونعرفه .

المبحث الثالث

استقلال الروح عن البدن

« يرى فريق من أهل الكلام المبتدع المحدث من الجهمية والمعتزلة أن الروح جزء من أجزاء البدن ، أو صفة من صفاته ، كقول بعضهم : إنها النفس أو الريح التي ترد في البدن ، وقول بعضهم ؛ إنها الحياة أو المزاج أو نفس البدن » (١) .

« والفلاسفة المشاؤون يقرون بأن النفس تبقى إذا فارقت البدن ، لكن يصفون النفس بصفات باطلة فيدعون أنها إذا فارقت البدن كانت عقلا ، والعقل عندهم مجرد عن المادة وعلائق المادة ، والمادة عندهم هي الجسم ، والعقل عندهم قائم بنفسه لا يوصف بحركة ولا سكون ولا يتجدد له أحوال البتة » (٢) .

وقد تخبط هؤلاء وهؤلاء في مقالاتهم في الروح ، فأهل الكلام المبتدع المذموم الذين قالوا : إن الروح هي الحياة أو المزاج أو نفس البدن أنكروا كثير منهم عذاب القبر ، فليس هناك روح تنعم أو تعذب بعد الموت في البرزخ . ورفضوا النصوص التي أثبتت ذلك .

والفلاسفة الذين زعموا أن الروح إذا فارقت البدن تصبح عقلا ، قالوا : « إذا فارقت البدن لا يتجدد لها حال من الأحوال لا علوم ولا تصورات ، ولا سمع ولا بصر ، ولا إرادات ، ولا فرح ولا سرور ، ولا غير ذلك مما قد يتجدد ويحدث ،

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : (٣١/٣) ، رسالة العقل والروح لابن تيمية ، انظر مجموعة الرسائل المنيرية : (٢١/٢) .

(٢) مجموعة الرسائل المنيرية ، رسالة العقل والروح : (٢١/٢)

بل تبقى عندهم على حال واحدة أزلا وأبدا ، كما يزعمونه في العقل والنفس» (١) .

وفريق من الفلاسفة يصفونها بما يصفون به واجب الوجود عندهم ، وهي أمور لا يتصف بها إلا تمتع الوجود ، فيقولون لا هي داخل البدن ولا خارجه ، ولا مباينه له ، ولا مداخلة له ، ولا متحركة ولا ساكنة ، ولا تصعد ولا تهبط ، ولا هي جسم ولا عرض» (٢) .

والسبب الذي أوقع كلا الفريقين في هذا الخطأ أنهم اعتمدوا على عقولهم وما وضعوه من مقاييس في البحث في أمر غيبي ، فالفريق الأول أنكر وجود روح مستقلة عن البدن ، وهذا تكذيب للنصوص المتواترة ، وإنكار لأمر معلوم من الدين بالضرورة ، والفلاسفة المشاؤون ومن سلك سبيلهم أثبتوا وجود الروح مستقلة عن البدن ، ولكن لما كانت هذه الروح «ليست من جنس هذا البدن ، ولا جنس العناصر والمولدات منها ، بل هي جنس آخر يخالف لهذه الأجناس» (٣) صعب عليهم تعريفها وتصورها ، وضائق تعبيراتهم ومقاييسهم عن حدها وتصورها ، وقد هدى الله الذين استجابوا لله ورسوله ، وآمنوا بما أخبرهم به ، فعلموا أن «الروح جسم يخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس ، وهو جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك ، ينفذ في جوهر الأعضاء ويسري فيها سريان الماء في الورد ، وسريان الدهن في الزيتون ، والنار في الفحم ، فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف ، بقي هذا الجسم اللطيف متشابكا بهذه الأعضاء ، وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة والإرادة ، وإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها ، وخرجت عن

(١) المصدر السابق : (٢٢/٢)

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : (٣١/٣)

(٣) المصدر السابق : (٣٢/٣)

قبول تلك الآثار فارق الروح البدن ، وانفصل إلى عالم الأرواح» (١) .

وقد سقنا في تضاعيف بحثنا كثيرا من الأدلة التي تثبت أن الروح شيء مستقل عن البدن ، كقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴿٢﴾ ، وقوله ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ ﴿٣﴾ ، وقوله ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ﴿٤﴾ ، وقوله : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مِنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَتِ الْأُنثَىٰ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٥﴾ ، وقوله : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٢﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٦﴾ ، فالذي يمسك ، وتتوفاه الملائكة ، ويبلغ الحلقوم ، ويبلغ التراقي ، والذي يساق - لابد أن يكون شيئا حقيقيا مخالفا للجسد .

وقد سقنا الأحاديث التي يخبر فيها رسول الله ﷺ أن ملك الموت يقبض الروح ، وأن الملائكة تضع تلك الروح في كفن من الجنة أو النار بحسب فلاحها أو فسادها ، وأنه يذهب بها في رحلة علوية سماوية ، حيث تفتح لها أبواب السماء إن كانت صالحة ، وتغلق دونها إن كانت طالحة ، وأنها تعاد إلى الجسد ، وتسال

(١) هذا تعريف ابن القيم للروح في كتابه: الروح ، وقد نقله عنه السفاريني في لوامع الأنوار البهية : (٢٩/٢) ، وعزاه إليه ، وذكره بنصه شارح الطحاوية من غير عزو ، انظر شرح الطحاوية : ص (٤٣٣) ، وقد قال ابن القيم بعد سياقه لهذا التعريف : « وهذا القول هو الصواب في المسألة ، وهو الذي لا يصح غيره ، وكل الأقوال سواء باطلة ، وعليه دل الكتاب والسنة واجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة ، وذكر مائة وخمسة عشر دليلا فأجاد وأفاد وزيف كلام ابن سينا وابن حزم وأمثالهما .

(٢) سورة الزمر : ٤٢

(٣) سورة الأنفال : ٥٠

(٤) سورة الأنعام : ٩٣٠ .

(٥) سورة القيامة : ٢٦ - ٣٠ .

(٦) سورة الواقعة : ٨٣ - ٨٤

وتعذب أو تنعم ، وأن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، وأرواح المؤمنين طير
يلق شجر الجنة ، وأن الروح إذا قبض تبعه البصر ، إلى غير ذلك من النصوص
الدالة في مجموعها دلالة قاطعة على أن الأرواح شيء آخر غير الأبدان ، وأنها تبقى
بعد مفارقة البدن .

المبحث الرابع

مَسْكِنُ الرُّوحِ فِي الجَسَدِ

الروح تسري في بدن الإنسان كله ، يقول ابن تيمية : « لا اختصاص للروح بشيء من الجسد ، بل هي سارية في الجسد كما تسري الحياة التي هي عرض في جميع الجسد ، فإن الحياة مشروطة بالروح ، فإذا كانت الروح في الجسد كان فيه حياة ، وإذا فارقت الروح فارقت الحياة . »^(١) .

(١) رسالة العقل والروح ، مجموعة الرسائل المنيرية : (٤٧/٢) .

المبحث الخامس الروح مخلوقة

ذهب فريق من الفلاسفة إلى أن الروح غير مخلوقة بل هي قديمة أزلية ، ولكنها ليست من ذات الرب ، ومقاتلهم في الروح هي مقاتلهم في العقول والنفوس الملكية ، ويزعم من دخل من أهل الملل فيهم أنها هي الملائكة .

وذهب صنف آخر من زنادقة هذه الأمة وضلالها من المتكلمة والمتصوفة والمحدثين إلى أن الروح من ذات الله ، وهؤلاء - كما يقول ابن تيمية - أشرف قولا من أولئك ، وهؤلاء جعلوا الأدمي نصفين : نصف لاهوت ، وهو روحه ، ونصف ناسوت وهو جسده : نصفه رب ونصفه عبد^(١) .

والحق الذي لا ينبغي أن يخالف فيه أن الروح مخلوقة مبتدعة ، ويدل على ذلك أمور :

١ - الإجماع :

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « روح الأدمي مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة ، وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة غير واحد من أئمة المسلمين ، مثل محمد بن نصر المروزي ، الإمام المشهور ، الذي هو أعلم أهل زمانه بالإجماع والاختلاف ، أو من أعلمهم .

وكذلك أبو محمد بن قتيبة ، قال في « كتاب اللقط » لما تكلم على خلق

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٤/٢٢٢) .

الروح ، قال : النسم الأرواح ، قال : وأجمع الناس أن الله خالق الجثة وباريء النسمة ، أي الروح .

وقال أبو إسحاق بن شاقلا فيما أجاب به في هذه المسألة : سألت رحمك الله عن الروح مخلوقة أو غير مخلوقة ، قال : هذا مما لا يشك فيه من وفق للصواب ، إلى أن قال : والروح من الأشياء المخلوقة ، وقد تكلم في هذه المسألة طوائف من أكابر العلماء والمشايخ ، وردوا على من يزعم أنها غير مخلوقة .

وصنف الحافظ أبو عبد الله بن منده في ذلك كتاباً كبيراً في (الروح والنفس) وذكر فيه من الأحاديث والآثار شيئاً كثيراً ، وقبله الإمام محمد بن نصر المروزي وغيره ، والشيخ أبو يعقوب الخراز ، وأبو يعقوب النهرجوري ، والقاضي أبو يعلى ، وغيرهم ، وقد نص على ذلك الأئمة الكبار ، واشتد نكيرهم على من يقول ذلك في عيسى بن مريم ، لاسيما في روح غيره كما ذكره أحمد في كتابه في « الرد على الزنادقة والجهمية » (١) .

٢ - الكتاب والسنة :

الأدلة من الكتاب والسنة الدالة على خلقها كثيرة ، مثل قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٢) ، يقول شارح الطحاوية عقب استدلاله بهذه الآية : « فهذا عام لا تخصيص فيه بوجه ما » (٣) ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مَنَ الْذَهْرِ لَمَّا لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّاذُكُوراً ﴾ (٤) ، وقوله جلّ وعلا لذكرياً : ﴿ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِن

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٤/٢١٦) .

(٢) سورة الرعد : ١٦ ، وسورة الزمر : ٦٢ .

(٣) شرح الطحاوية : ص (٤٤٢) .

(٤) سورة الأنسان : ١ .

قَبْلُ وَلَرَّتْكَ شَيْئًا»^(١) ، والإنسان اسم لروح الإنسان وبدنه ، وخطاب الله لذكريا لروحه وبدنه ، يقول ابن تيمية : « الإنسان عبارة عن البدن والروح معا ، بل هو بالروح أخص منه بالبدن ، وإنما البدن مطية للروح ، كما قال أبو الدرداء : إنما بدني مطيقي ، فإن رفقت بها بلغتني ، وإن لم أرفق بها لم تبلغني ، وقد رواه ابن مندة وغيره عن ابن عباس ، قال لاتزال الخصومة يوم القيامة بين الخلق حتى تختصم الروح والبدن ، فتقول الروح للبدن : أنت عملت السيئات ، فيقول البدن للروح ، أنت أمرتني ، فيبعث الله ملكا يقضي بينهما ؛ فيقول : إنما مثلكما كمثل مقعد وأعمى دخلا بستانا ، فرأى المقعد فيه ثمرا معلقا ؛ فقال للأعمى : إني أرى ثمرا ولكن لا أستطيع النهوض إليه ، وقال الأعمى : لكنني أستطيع النهوض إليه ، ولكني لا أراه ، فقال المقعد : تعال فاحملني حتى أقطفه ، فحمله وجعل يأمره فيسير به إلى حيث يشاء فقطع الثمرة ، قال الملك : فعل أيها العقوبة ؟ قالا : عليهما جميعا ، قال : فكذلك أنتما »^(٢) .

٣ - ذكرنا في بحثنا هذا كثيرا من النصوص عن النبي ﷺ أن الأرواح تقبض ، وتوضع في كفن وحنوط تأتي بها الملائكة ، ويصعد بها ، وتنعم وتعذب ، وتمسك في النوم ، وترسل ، وكل هذا شأن المخلوق المحدث .

٤ - لو لم تكن مخلوقة مربية لما أقرت بالربوبية ، وقد قال الله للأرواح حين أخذ الميثاق على العباد وهم في عالم الذر ألسنت بربكم ؟ قالوا بلى ، وذلك ما قرره الحق في قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ... ﴾^(٣) ، وما دام هو ربهم فإنهم مربون مخلوقون .

(١) سورة مريم : ٩ .

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٢٢٢/٤) .

(٣) سورة الأعراف : ١٧٢ .

٥ - لو لم تكن الأرواح مخلوقة فإن النصارى لا لوم عليهم في عبادتهم عيسى ، ولا في قولهم إنه ابن الله ، أو هو الله .

٦ - لو كانت الروح غير مخلوقة فإنها لا تدخل النار ولا تعذب ، ولا تحجب عن الله ، ولا تغيب في البدن ، ولا يملكها ملك الموت ، ولما كانت صورة توصف ، ولم تحاسب ولم تعذب ، ولم تتعبد ولم تخف ، ولم ترج ، ولأن أرواح المؤمنين تتلألأ ، وأرواح الكفار سود مثل الفحم^(١) .

(١) الأدلة الثلاثة الأخيرة استدلت بها أبو سعيد الخزاز ، أحد أكابر المشايخ الأئمة من أقران الجنيد فيما نقله عنه شيخ الإسلام ابن تيمية ، انظر مجموع الفتاوى (٤/٢٢٠) .

المبحث السادس

شبهات الذين زعموا أن الروح غير مخلوقة

الذين قالوا إن الروح غير مخلوقة احتجوا بمثل قوله تعالى : ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ
الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (١) ، والجواب عن هذا من وجوه :

الأول : أن الروح هنا ليست روح الأدمي ، وإنما هو اسم ملك ، كما قال
تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ (٢) ، وقال : ﴿تَعْرَجُ الْمَلَائِكَةُ
وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ (٣) ، وقال : ﴿تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ (٤) ، وهذا
قول معروف مشهور عند علماء السلف في تفسير الآية .

الثاني : وإذا قلنا إن المراد بالروح هنا روح الأدمي - كما هو قول جمع من
علماء السلف في الآية - فليس فيها ما يدل على أن الروح غير مخلوقة ، وأنها جزء من
ذات الله تعالى كما يقال هذه الخرقه من هذا الثوب ، بل المراد أنها تنسب إلى الله
لأنها بأمره تكونت ، أو لأنها بكلمته كانت ، والأمر في القرآن يذكر ويراد به المصدر
تارة ، ويراد به المفعول تارة أخرى وهو المأمور به ، كقوله تعالى : ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا
تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ (٥) ، أي المأمور به ، ويمكن أن يقال أيضا : أن لفظه (من) في قوله :

(١) سورة الإسراء : ٨٥ .

(٢) سورة النبا : ٣٨ .

(٣) سورة المعارج : ٤ .

(٤) سورة القدر : ٤ .

(٥) سورة النحل : ١ .

(من أمر ربي) لإبتداء الغاية ، ومعلوم أن (من) تأتي لبيان الجنس ، كقولهم :
باب من حديد ، وتأتي لإبتداء الغاية ، كقولهم : خرجت من مكة ، فقوله : (من
أمر ربي) ليس نصا في أن الروح بعض الأمر ومن جنسه ، بل هي لابتداء الغاية إذ
كونت بالأمر ، وصدرت عنه ، وهذا معنى جواب الإمام أحمد في قوله : وروح منه
حيث قال : (وروح منه) يقول من أمره كان الروح ، كقوله تعالى : ﴿ وَنَحَّرَ
لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾^(١)، ونظير هذا أيضا قوله تعالى :
﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾^(٢) .

فإذا كانت المسخرات والنعم من الله ، ولم تكن بعض ذاته ، بل منه
صدرت ، لم يجب أن يكون معنى قوله في المسيح : روح منه ، أنها بعض ذاته^(٣) .

الشبهة الثانية : قوله تعالى في آدم ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾^(٤) ، وقوله
في عيسى : ﴿ فَنفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ﴾^(٥) ، قالوا : فقد أضاف الله الروح إلى
نفسه ، وقد أجاب عن هذه الشبهة شارح الطحاوية فقال : « ينبغي أن يعلم أن
المضاف إليه الله تعالى نوعان : صفات لا تقوم بأنفسها ، كالعلم والقدرة ،
والكلام والسمع والبصر ، فهذه إضافة صفة إلى موصوف بها ، فعلمه وكلامه
وقدرته وحياته صفات له ، وكذا وجهه ويده سبحانه .

والثاني : إضافة أعيان منفصلة عنه ، كالبيت والناقة والعبد والرسول
والروح كقوله : ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيِيهَا ﴾^(٦) وقوله : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ

(١) سورة الجاثية : ١٣ .

(٢) سورة النحل : ٥٣ .

(٣) للتوسع في هذا البحث راجع : مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٤/ ٢٢٦ - ٢٣٥) .

(٤) سورة الحجر : ٢٩ .

(٥) سورة الأنبياء : ٩١ .

(٦) سورة الشمس : ١٣ .

عَنْ عَبْدِهِ - ﴿^(١)﴾ وقوله : ﴿ وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ . . ﴾ ^(٢) فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه ، لكن إضافة تقتضى تخصيصاً وتشریفاً ، يتميز بها المضاف إلى غيره ، ^(٣) .

-
- (١) سورة الفرقان : ١ .
(٢) سورة الحج : ٢٦ .
(٣) شرح الطحاوية : ص ٤٤٢ ، وراجع رسالة الروح ، مجموعة الرسائل المنيرية : (٣٨/٢) .

المبحث السابع

أنواع النفوس

أخبرنا الحق أن النفوس ثلاثة أنواع : النفس الأمانة بالسوء ﴿ إِنَّ النَّفْسَ
لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ (١) ، والنفس اللوامة ﴿ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ
اللَّوَّامَةِ ﴾ (٢) ، والنفس المطمئنة ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنِّةُ ﴿٧٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ
رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٧٨﴾ فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّاتِي ﴾ (٣) ، وليس المراد أن
لكل إنسان ثلاثة نفوس ، وإنما المراد أن هذه صفات وأحوال لذات واحدة ، فإذا
غلب على النفس هواها بفعلها للذنوب والمعاصي فهي النفس الأمانة بالسوء ،
والنفس اللوامة هي التي تذب وتتاب ، سميت لوامة ، لأنها تلوم صاحبها على
الذنوب ، ولأنها تتلوم أي تتردد بين فعل الخير والشر ، والنفس المطمئنة هي التي
تحب الخير والحسنات وتريدها ، وتبغض الشر والسيئات وتكره ذلك ، وقد صار
ذلك لها خلقا وعادة وملكة (٤) .

وقال شارح الطحاوية بعد أن ذكر أنواع النفوس : « والتحقيق : أنها نفس
واحدة ، لها صفات ، فهي أمانة بالسوء ، فإذا عارضها الإيمان صارت لوامة ،
تفعل الذنب ثم تلوم صاحبها ، وتلوم بين الفعل والترك ، فإذا قوى الإيمان صارت
مطمئنة (٥) .

(١) سورة يوسف : ٥٣ .

(٢) سورة القيامة : ٢ .

(٣) سورة الفجر : ٢٧ .

(٤) راجع رسالة العقل والروح لابن تيمية ، مجموعة الرسائل المنيرية : (٤١/٢) .

(٥) شرح الطحاوية : ص ٤٤٥ .

المبحث الثامن

هل تموت النفوس

يقول ابن تيمية : « والأرواح مخلوقة بلاشك ، وهي لا تعدم ولا تفتنى ، ولكن موتها بمفارقة الأبدان ، وعند النفخة الثانية تعاد الأرواح إلى الأبدان »^(١) . وقد تعرض شارح الطحاوية لهذه المسألة ، فقال : « واختلف الناس هل تموت الروح أم لا ؟ فقالت طائفة : تموت لأنها نفس ، وكل نفس ذائقة الموت ، ... وإذا كانت الملائكة تموت ، فالنفوس البشرية أولى بالموت ، وقال آخرون ، لا تموت الأرواح ، فإنها خلقت للبقاء ، وإنما تموت الأبدان ، قالوا : وقد دل على ذلك الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها ، والصواب أن يقال : موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها ، فإن أريد بموتها هذا القدر ، فهي ذائقة الموت ، وإن أريد أنها تعدم وتفتنى بالكلية فهي لا تموت بهذا الاعتبار ، بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب ، ... وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾^(٢) ، وتلك الموتة هي مفارقة الروح للجسد »^(٣) .

(١) مجموع الفتاوي : (٤/٢٧٩) .

(٢) سورة الدخان : ٥٦ .

(٣) شرح الطحاوية : ص (٤٤٦) .

المبحث التاسع

منقرا الأرواح في البرزخ

أرواح العباد في البرزخ متفاوتة في منازلها ، وقد استقرأنا النصوص الواردة في ذلك فأفادتنا التقسيم التالي :

أولا : أرواح الأنبياء ، وهذه تكون في خير المنازل في أعلى عليين ، في الرفيق الأعلى ، وقد سمعت السيدة عائشة عاتشة الرسول ﷺ في آخر لحظات حياته يقول : « اللهم الرفيق الأعلى »^(١) .

الثاني : أرواح الشهداء ، وهؤلاء أحياء عند ربهم يرزقون ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْزُقُونَ ﴾^(٢) ، وقد سأل مسروق عبدالله بن مسعود عن هذه الآية ، فقال : « إنا قد سألنا عن ذلك ، فقال : « أرواحهم في أجواف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل » رواه مسلم في صحيحه^(٣) . وهذه أرواح بعض الشهداء لا كل الشهداء ، لأن منهم من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه ، كما في المسند عن عبدالله بن جحش أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، مالي إن قتلت في سبيل الله ؟ قال : « الجنة » ، فلما ولى ، قال : « إلا الدين ، سارني به جبريل أنفا »^(٤) .

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب من أحب لقاء الله ، فتح الباري : (٣٥٧/١١) .

(٢) سورة آل عمران : ١٦٩ .

(٣) مشكاة المصابيح : (٣٥١/٢) ، وللحديث تمة .

(٤) قال الشيخ ناصر الدين الألباني في تعليقه على شرح الطحاوية : ص ٤٤٥ « صحيح » ، وقد سقنا من قبل أكثر من حديث في هذا المعنى .

الثالث : أرواح المؤمنين الصالحين : تكون طيوراً تعلق شجر الجنة ، ففي الحديث الذي يرويه عبدالرحمن بن كعب بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إنما نسمة المسلم طير يعلق في شجر الجنة ، حتى يرجعها الله إلى جسده إلى يوم القيامة » رواه أحمد^(١) .

والفرق بين أرواح المؤمنين وأرواح الشهداء ، أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح متنقلة في رياض الجنة ، وتأوي إلى قناديل معلقة في العرش ، أما أرواح المؤمنين فإنها في أجواف طير يعلق ثمر الجنة ولا ينتقل في أرجائها . وكون أرواح المؤمنين طيراً يعلق شجر الجنة لا يشكل عليه الحديث الآخر الذي يرويه أبو هريرة عن الرسول ﷺ ، وفيه أن الملائكة تقبض روح العبد المؤمن ، وترقى به إلى السماء ، فتقول الملائكة : « ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض ، فيأتون به أرواح المؤمنين ، فلهم أشدُّ فرحاً من أحدكم بغائبه يقدم عليه ، فيسألونه : ماذا فعل فلان ؟ ماذا فعل فلان ؟ فيقولون : دعوه ، فإنه كان في غم الدنيا ، فيقول : قدمات ، أما أتاكم ؟ قالوا : ذهب به إلى أمه الهاوية »^(٢) ، فإن روح المؤمن تلتقي بأرواح المؤمنين في الجنة .

الرابع : أرواح العصاة : سبق أن أوردت النصوص التي تبين ما يلاقه العصاة من العذاب ، فمن ذلك أن الذي يكذب الكذبة تبلغ الآفاق يعذب بكلوب من حديد يدخل في شدقه حتى يبلغ قفاه ، والذي نام عن الصلاة المكتوبة يشدخ رأسه بصخرة ، والزناة والزواني يعذبون في ثقب مثل التنور ضيق أعلاه

(١) أورده الشيخ ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٧٣٠/٢) ، حديث رقم (٩٩٥) ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ورواه ابن ماجه في سننه ، ومالك في موطنه ، والنسائي بلفظ : «إن أرواح المؤمنين في أجواف طير خضر ، تعلق بشجر الجنة» .
(٢) رواه النسائي ، كتاب الجنائز ، باب ما يلقي المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه : (٨/٤) .

وأسفله واسع ، توقد النار من تحته ، والمرابي يسبح في بحر من دم ، وعلى الشط من يلقيه حجارة^(١) . وقد ذكرنا الأحاديث التي تتحدث عن عذاب الذي لم يكن يستنزه من بوله ، والذي يمشي بالنميمة بين الناس ، والذي غلّ من الغنمية ونحو ذلك .

الخامس : أرواح الكفار : في حديث أبي هريرة عند النسائي بعد وصف حال المؤمن إلى أن يبلغ مستقره في الجنة ، ذكر حال الكافر ، وما يلاقه عند النزاع ، وبعد أن تقبض روحه « تخرج منه كأنتن ريح ، حتى يأتون به باب الأرض ، فيقولون : ما أنتن هذه الريح ، حتى يأتون به أرواح الكفار »^(٢) .

(١) سبق أن سقنا هذا الحديث بطوله ، والحديث رواه البخاري في صحيحه .
(٢) رواه النسائي ، كتاب الجنائز ، باب ما يلقي المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه ، (٨/٤) .

المبحث العاشر

اشكال وجوابه

قد يقال : سقت من النصوص ما يدل على أن الأرواح تعاد إلى الإبدان ، ثم تُسأل ، وبعد ذلك ينعم المؤمن ، ويعذب الكافر ، فكيف تقول بعد ذلك إن نسمة المؤمنين في الجنة ، ونسمة الكفار في النار ؟

حاول ابن حزم أن يضعف الأحاديث التي تذكر إعادة الروح إلى البدن في القبر ، ولكن ليس الأمر كذلك ، فإن ما ضعفه ابن حزم وهو حديث زاذان عن البراء حديث صحيح ، وهناك أحاديث كثيرة صحيحة متواترة تدل على عود الروح إلى البدن كما يقول ابن تيمية^(١) ، وفي التوفيق بين النصوص يقول ابن تيمية : « وأرواح المؤمنين في الجنة ، وإن كانت مع ذلك قد تعاد إلى البدن ، كما أنها قد تكون في البدن ، ويعرج بها إلى السماء كما في حال النوم ، أما كونها في الجنة ففيه أحاديث عامة ، وقد نص على ذلك أحمد وغيره من العلماء ، واحتجوا بالأحاديث الماثورة العامة وأحاديث خاصة في النوم وغيره »^(٢) ثم ذكر بعض هذه الأحاديث التي سقناها من قبل ، وأورد حديث أبي هريرة الذي رواه ابن حبان وغيره ، والذي يذكر فيه أن المؤمن يرى بعد السؤال مقعده من الجنة ، ومقعده من النار لو كان كافرا ، قال : « ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا ، وينور له فيه ، ويعاد جسده كما بدىء ، وتجعل نسمة في نسمة طيب ، وهي طير تعلق في شجر الجنة » ، وفي لفظ « وهو طير يعلق في شجر الجنة » ، وفي لفظ : « ثم يعاد جسده

(١) مجموع الفتاوى : (٤٤٦/٥) .

(٢) المرجع السابق : (٤٤٧/٥) .

إلى ما بديء منه»^(١) فالروح - كما يدل عليه الحديث تعاد إلى الجسد بعد الرحلة إلى السماء ، ثم تسأل ، ثم تكون طيرا يعلق شجر الجنة إلى أن يبعث العباد ، ومع كونها في الجنة فإنه يبقى لها تعلق بالجسد ، كحال الإنسان في النوم ، فإنها تجول في ملكوت السموات والأرض ، مع أن لها تعلق بالجسد ، وفقه هذا مبني على معرفة أن الروح مخالفة للأجساد وللمعهود من حال المخلوقات الدنيوية ، يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى بعد أن ذكر أن مستقر أرواح المؤمنين الجنة : « ومع ذلك تتصل بالبدن متى شاء الله تعالى ، وهي في تلك»^(٢) اللحظة بمنزلة نزول الملك ، وظهور الشعاع في الأرض وانتباه النائم»^(٣) .

(١) انظر مجموع الفتاوي : (٤٤٨/٥) .

(٢) في الأصل : وذلك في اللحظة .

(٣) مجموع الفتاوي : (٣٦٥/٢٤) .

المبحث الحادي عشر
هل العذاب في البرزخ على الروح
أم على البدن أم على كليهما

الفرق الإسلامية في هذا الموضوع على أقوال :

الأول : مذهب أهل السنة والجماعة أنه للروح منفصلة عن الجسد ، ومتصلة به ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعا باتفاق أهل السنة والجماعة ، تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن ، وتعذب متصلة بالبدن ، والبدن متصل بها ، فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعين ، كما يكون للروح منفردة عن البدن » .

الثاني : قول كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم الذين ينكرون النعيم والعذاب في البرزخ مطلقا ، والسري ذلك أنهم ينكرون وجود روح مستقلة عن الجسد ، فالروح عندهم هي الحياة ، ولا تبقى الروح في نظرهم بعد الموت^(١) ، فلا نعيم ولا عذاب حتى يبعث الله العباد ، قال بذلك بعض المعتزلة والأشاعرة كالقاضي أبي بكر ، وهذا قول باطل لاشك في بطلانه خالفه أبو المعالي الجويني ، وقد نقل غير واحد من أهل السنة الإجماع على أن الروح تبقى بعد فراق البدن وأنها منعمة أو معذبة .

الثالث : قول الفلاسفة الذين يرون أن النعيم والعذاب على الروح وحدها ،

(١) هؤلاء وإن أنكروا عذاب القبر إلا أنهم يثبتون معاد الأبدان .

وأن البدن لا ينعم ولا يعذب^(١) ، وقد قال بهذا القول من أهل السنة ابن ميسرة ،
وابن حزم .

الرابع : قول من قال من علماء الكلام أن الذي ينعم ويعذب في القبر البدن
وحده ، وقال بذلك طائفة من أهل الحديث منهم ابن الزاعوني^(٢) .

(١) وهؤلاء وإن أثبتوا عذابا ونعيا للروح بعد فراقها للبدن إلا أنهم ينكرون المعاد .
(٢) راجع في هذه المسألة مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية : (٤/٢٦٢ ، ٢٨٢) .

المبحث الثاني عشر هل يعلم الإنسان شيئاً عن أحوال الدنيا بعد موته

ثبت في الأحاديث الصحيحة أن الميت يسمع قرع نعال أصحابه، بعد وضعه في قبره، فعن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، إنه ليسمع قرع نعالهم..»^(١) ووقف الرسول ﷺ بعد ثلاثة أيام من معركة بدر على قتلى بدر من المشركين فنادى رجالاً منهم، فقال: «يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبه بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً» فقال عمر بن الخطاب: «يارسول الله! كيف يسمعون أني يجيبوا وقد جيفوا»^(٢) قال: «والذي نفسي بيده! ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدر أن يجيبوا ثم أمر بهم فسحبوا، فألقوا في قليب بدر»^(٣).

وقد ساق ابن تيمية جملة من الأحاديث التي تدل على أن الموق يسمعون، ثم قال: «فهذه النصوص وأمثالها تُبين أن الميت يسمع في الجملة كلام الحي، ولا

(١) رواه مسلم، كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٢٢٠٣/٤) حديث رقم (٢٨٧٤).

(٢) أي أنتوا، وصاروا جيفا.

(٣) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، ورواه مسلم في كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٢٢٠٠/٤). حديث رقم (٢٨٧٠) ورواه أبو داود والنسائي أيضاً، انظر جامع الأصول: (١٨٠/١١).

يجب أن يكون السمع له دائما ، بل قد يسمع في حال دون حال ، كما قد يعرض للحمي ، فإنه يسمع أحيانا خطاب من يخاطبه ، وقد لا يسمع لعارض يعرض له ^(١) . وقد أجاب شيخ الإسلام على إشكال من يقول : إن الله نفى السماع عن الميت في قوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ ^(٢) ، وكيف تزعمون أن الموتى يسمعون ؟ فقال : « وهذا السمع سمع إدراك ، ليس يترتب عليه جزاء ، ولا هو السمع المنفي بقوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ ^(٣) ، فإن المراد بذلك سمع القبول والامتثال ، فإن الله جعل الكافر كالميت الذي لا يستجيب لمن دعاه ، وكالبهائم التي تسمع الصوت ، ولا تفقه المعنى ، فالميت وإن سمع الكلام وفقه المعنى ، فإنه لا يمكنه إجابة الداعي ، ولا امتثال ما أمر به ، ونهى عنه ، فلا ينتفع بالأمر والنهي ، وكذلك الكافر لا ينتفع بالأمر والنهي ، وإن سمع الخطاب ، وفهم المعنى ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ ^(٤) ^(٥) وقد جاءت النصوص دالة أيضا على أن الميت مع سماعه يتكلم ، فإن منكرا ونكيرا يسألونه ، فال مؤمن يوفق للجواب الحق ، والكافر والمنافق يضل عن الجواب ، ويتكلم أيضا في غير سؤال منكر ونكير ، وكل هذا مخالف لما عهداه أهل الدنيا من كلام ، فإن الذي يسأل ويتكلم الروح ، وهي التي تجيب وتقعده وتعذب وتنعم ، وإن كان لها نوع اتصال بالجسد ، وقد سبق القول أن بعض الناس قد يسمعون الكلمة من الميت ، وأن الرسول ﷺ كان يسمع من هذا شيئا كثيرا .

(١) مجموع الفتاوي : ٣٦٤/٥ .

(٢) سورة النمل : ٨٠ .

(٣) سورة النمل : ٨٠ .

(٤) سورة الأنفال : ٢٣ .

(٥) مجموع الفتاوي : (٣٦٤/٥) .